

فوق تحت

مجموعة قصصية

بسام الرمال

## أحلام الفجر

الليل البارد يسوط أعصابه المحمومة، وعيناه تستقران بشيء من القلق على الوجه الصغير الأسمر، وجه سعيد الهادئ الذي يتنفس الفرح و الحلم، عينا الأب تستقران فوق الجفنين المطبقين و الأهداب التي تتعانق بسلام، لا شك أنّ داخل هذا الرأس الصغير حقولاً خضراً و شلالات من فرح و بهجة و سعادة. عادت نظرات الأب تحمق إلى السقف الخشبي داخل فضاء مربع حبيس مصادر حتى من الضوء، قام إلى مصباح الكاز و خنق فتيله النازف، فبقي يرشح أشعة باهتة كموت بطيء، لكن يقظة حادة تشدّ أعصابه.

سمع ابنه سعيداً يقول لرفيق له عند باب المنزل:

- طمئن معلمنا، سأقوم أنا بالمهمة، سأستعمل حقيبتني بعد أن أفرغها من الكتب. راقبه و هو يخفي كتبه وراء خزانة الثياب، انتظر حتى ينام الجميع، فتح الحقيبة المنتفخة، أوراق بحجم واحد حُشرت بسرعة و اضطراب، أخرج ورقة (( القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة )) تاهت عيناه بين السطور، انتابه مزيج من القلق و الخوف و الإشفاق، (( سعيد... سعيد الصغير... )).

كانت نواقيس كنائس القدس تقرر من بعيد استعداداً لاستقبال ليلة الميلاد، فيصِلُهُ رنينها حزيناً ممزوجاً برطوبة رياح كانون، قام إلى النافذة الوحيدة، رفع ستارتها، فانداح أمامه الطريق الخالي موحشاً إلا من الصقيع و الظلام، و بعض الأنوار الباهتة القليلة التي تتسلسل بصعوبة من النوافذ المتناثرة على جانبي الطريق.

سمع هدير محركات سيارات، أسدل الستارة، و ترك فرجة تكفي لعين واحدة و التصق بالجدار، علا صوت المحركات، و ازداد صخباً، فأحس برجة خفيفة في الجدار، ثم امتدت فجأة أضواء حادة نزقة، تُبعثر الظلمة، و ظهرت بضع سيارات عسكرية مصفحة، تحولت حواسه كلها إلى عيون ترقب الطريق كانت فوهات البنادق وحدها التي تطلّ من فتحات صغيرة في السيارات المصفحة التي اجتازت الطريق مسرعة، و ابتعد صوتها ثم بدأ يتلاشى في دوائر بعيدة فارغة مخلّفاً من جديد صمت الليل الأجوف.

التفت إلى سعيد فرأى شفثيه، تنفرجان مرات عن ابتسامات قصيرة، ثم تتمتان بكلمات مبهمة، تقلّب سعيد في فراشه، ثم أخذ يفرك كفاً بالكف الآخر (( هل يستعجل سعيد الوقت؟ أهذه علامة فرح أم خوف؟ أكون الصغير مضطرباً أم أنه ينتظر اللحظة التي يؤدي فيها المهمة؟ و يكون كشقيقه سامي... سامي... أين هو الآن؟ لا بد أنه في غرفة باردة دون طعام أنا أعرف سامياً، إنه رجل، لكنّ الجوع يقهر الرجال، قد يتركونه أسبوعاً دون طعام، من يصمد أمام الجوع و التعذيب بالماء البارد و الكهرباء في هذا الطقس الكافر؟ قطعوا الماء و الكهرباء عن المدينة عدا غرف التعذيب، لا بأس يا سامي، أريدك أن تبقى رجلاً رغم ما يفعلون، سيهدمون البيت... نعم لقد أنذرونا بالهدم ((.

حدق الأب في سعيد الذي يتلذذ بأحلامه الوثابة، فرأى رأساً صغيراً بين رؤوس أخرى أصغر منه، يغطيه شعر أسود أجعد كأنه الخوذة، و كفه ترقد بحنو فوق خده، انتبه إلى المعصم الصغير (( هل يتحمل هذا المعصم ضربات العصي الغليظة... قد يكسرون أطرافه، إنّ عظامه الطرية لا تتحمل أكثر من ضربة واحدة ((. نظر ثانية إلى المعصم المكشوف، فشعر بألم يستيقظ في أعماقه و إشفاق على هذه اليد الصغيرة (( ربما يلقونه فوق دولاب سيارة مشتعل، فيلتصق لحمه الغض بمطاط الدولاب المنصهر، و صيحات استغاثته لا تجد من جنود الصهاينة إلا الضحك الهستيري، يجب أن أمنع سعيداً من تنفيذ المهمة، إنه ما يزال صغيراً، لا تقوى عظامه على ضربات العصي، رفيقه محمود بن أحمد الغالب تلقى ضربة على ظهره أفقدته الحركة، لقد كُسِرَت ثلاث فقرات بضربة واحدة، فهل عظام سعيد أصلب؟!... يجب أن أمنع سعيداً... لكن المنشورات هامة و يجب أن توزع غداً ((. أحكم غطاء الأولاد، كانت زوجته تنام قرب الباب الذي ينفخ في شقوقه هواء كانون، تجمعت على نفسها تحضن طفلتها التي ما تزال في القمط، وجهها طويل أعجف و ذراعها اليمنى مربوطة بخرقه مدماة، لقد دافعت عن سامي ساعة اعتقاله فكانت حصتها ضربة بعقب بندقية.

اندس في فراشه، إنه لا يسمع إلا أنفاساً عميقة تتردد، حاول أن يطبق جفنيه ليترد الأفكار التي تثقب رأسه، تمدّد فأحس بلسعة الفراش، لم يهتم و أصرّ على تذوق

لساعات البرد ما دام سامي من دون غطاء في أحد المعتقلات المنصوبة من الصفيح خارج المدينة، تندلق عليه المياه الباردة، تقلب في فراشه، حاول ثم حاول، لكنّ عينيه صاحيتان كشمس تموز، سمع هدير محركات من جديد، لم يتحرك، اتجهت عيناه نحو النافذة، علا الصوت كثيراً، فاستجابت الغرفة للهدير، أحس جسمه الممدد باهتزاز أكبر، ازداد سمعه رهافة، أشباح تغزو رأسه، عاد الصوت يبتعد ويتلاشى.

كان يحس بلهب في جفنيه، إنه متشوّق إلى إغفاءة ليريح أعصابه، أخذ الغطاء فوق رأسه محاولاً خداع النوم، صبر على ضيق تنفسه ثم كشف الغطاء بسرعة كمن يحس بالاختناق، وثب من مكانه، ثم جلس مسنداً ظهره إلى الجدار البارد المطلي بالكلس المتقشر، أرعبته الفكرة (( قد يدفنون سعيداً و هو حي، نعم قد يدفنونه و هو حيّ، لقد فعلوها، كم سيتعدّب هذا الصبي تحت ركام التراب حتى تتوقف أنفاسه و تموت رثاه؟ إنني لم أتحمّل ضيق الهواء إلا لحظات فكيف بهذا الصبي...؟ )).

حاول ألا ينظر إلى جهة سعيد كيلا يتخيله و هو في حفرة عميقة، يقاوم بيديه و رجليه الضعيفة أكوام التراب المنهالة فوقه، لكن عينيه شردتا على الرغم منه إلى جهة سعيد تتفحصان الفم الصغير المكوم، و الأنفاس العميقة المنتظمة التي ستضطرب و تتلاشى إلى الأبد (( سيمتلئ هذا الفم الجميل بالتراب، يجب أن أمنع سعيداً لكن المنشورات هامة ويجب أن توزع )).

انسابت أصوات الفجر من حناجر المآذن ندية صافية، وارتفعت (( الله أكبر )) عذبة شفافة تسبح في الهدوء الساجي فوق المدينة الحزينة، شعر ببرودة الاطمئنان (( أين إيمانك بالله يا أبا سامي؟؟! الله أكبر من الجميع، إنه لا ينسى أحداً من عباده )) غمره إيمانٌ عارم و فاضت نفسه بالأمل و بدأ الخدر يسري في أعصابه المحمومة.

زحف إلى فراشه و أسلم رأسه إلى الوسادة الرقيقة المجوّفة التي تشرد حشوها إلى القطبين، تعلقت عيناه المتعبتان بذبالة المصباح التي ترسل خيالات متراقصة فترسم على الجدار أشباحاً، تطول و تقصر، تتراجع ثم تندفع أمام حشد من هياكل عظمية تحمل مناجل مقوسة، لامعة الشفرة يسقط أحد المهاجمين، فتنفض عليه المناجل تمزق ظهره وكتفيه فيسيل الدم غزيراً، إنه سامي الذي غدا رجلاً بقامة مديدة وشاربين أسودين غليظين، ينهض سامي فتراجع الهياكل مذعورة تتجمع ثم تتفكك عظامها ويختلط

بعضها ببعض، وتصبح أقزاماً ترتدي وجوهاً مطاطية، تضحك دون ملامح، و بأيديها هروات نحاسية، تختبئ في الزوايا و الشقوق متربصة بالمارة، ثم تقبض عليهم واحداً بعد الآخر تضربهم على رؤوسهم و وجوههم، و تلقيهم في سيارة طويلة سوداء تشبه قطاراً، سعيد بينهم داخل القطار يقفز من النافذة و يتسلق عمود كهرياء، و يسير على الأسلاك كلاعب سيرك ماهر، يركض، تتحول الهروات إلى بنادق تصوب جمعياً نحوه، يتحول سعيد إلى طائر أبيض يطير و يطير، و الطلقات تتفجر من حوله ثم يصاب في صدره و ينزف، فتلمع قطرات الدم و هي معلقة في الفضاء ثم تتحول إلى نجوم صغيرة وردية، لكن سعيداً يرتفع و يرتفع فتحمله غيمة شاردة إلى عالم أزرق بعيد، تتحول الوجوه المطاطية نحو أبي سامي فيركض، تشير إليه ثم تلاحقه، فيصطدم بأحدها فتدفعه بقسوة، فيرى بيته قد أصبح كبيراً ضخماً كأحد قصور بغداد السحرية، بزخارفه و أقواسه الحجرية، ثم يجد نفسه داخل البيت و أصوات ممطوطة تطلب منه الخروج قبل أن ينفجر البيت و يتهدم فوقه، يرفض و يتشبث بمكتبة قديمة، فيدوي انفجار مروع، يسقط البيت، يعلو الغبار، فلا يستطيع أن يتنفس يسعل بشدة و ينهض من فراشه مرتاعاً، و أم سامي إلى جانبه تهدئ من انفعاله، و تلومه على إفراطه في التدخين. جمد في فراشه دقائق، فلمح سعيداً يرتدي ملابسه بسرعة، على غير عادته، قالت له أمه:

- الوقت أمامك طويل فلماذا العجلة؟ ثم إنك لم تتناول طعامك.

غمغم ببعض العبارات و حمل حقيبته المنتفخة، و عينا الأب تراقبانه، خرج سعيد من باب الغرفة إلى فسحة الدار، ناداه أبوه، جمد في مكانه، التفت يستوضح عن سبب النداء، قال أبو سامي:

- كن متيقظاً جداً، و منتبهاً إلى دروسك هذا اليوم، أملي بك كبير يا سعيد.

أغلق سعيد الباب و انطلق إلى الطريق الطويل الذي بدأت تضيئه أشعة الصباح.

## الاتجاه الواحد

وقفت سيارة الأجرة أمامنا فجأة بسرعة و مهارة، بعد أن تجاوزت ملتوية كأفعى مذعورة عدة سيارات، و أزيز الدواليب و صرير المكابح يبعثان في النفس القشعريرة و الانقباض.

تفضل أستاذ، قالها السائق قبل أن أستيقظ من المفاجأة، و أستعيد في وعيي تفاصيل ما حدث، ركبت متردداً جانب السائق، و ركب ابني في المقعد الخلفي، انطلقت السيارة كحصان جامح، قال السائق بثقة المنتصر: أنا أعرف الزبون من بعد كيلومترات، و قبل أن يشير بيده أو برأسه، أنا عرفت أنك تريد سيارة قبل أن ترفع يدك. أستاذ خبرة ثلاثين سنة... سائق مر... أترى هذه السيارات أمامك إنني أتحداهما جميعها هل تريد تجربة!؟

قلت له: أريد فقط أن توصلني إلى شارع القوتلي.

على الرأس و العين، لكن يا أستاذ عليك أن تعرف مع من تركب، خبرة ثلاثين سنة تركب معها بأمان، أنا تعلمت سواقة السيارة و عمري عشر سنوات، كنت أغافل والدي و أسرق سيارته، كان والدي يعمل في مكتب دفن الموتى سائق ماهر يعجبك، سلموه سيارة نقل الموتى، فتعلمنا كلنا أنا و إخوتي سواقة السيارة دون أن ندفع ليرة واحدة، كل رجال شرطة السير ما إن يلمحوا السيارة من بعيد حتى يقطعوا الطرق، و يتركونا نمر مع تحية و احترام... ثم أطلق ضحكة طويلة ساذجة... مرة يا أستاذ من حلب إلى حمص 200 كم حرقناها بساعة واحدة، تركت السيارات ورائي سلاحف، لكن كانت سيارة طيبة، تجاوزت معي، في الطريق انكسرت دعسة تغيير السرعة، تخيل أستاذ، كنت أغير السرعة بحسب صوت تطابق المسننات. أنا أعرف عطل السيارة من صوتها... من هزتها... من لحظة انطلاقها... من يومين مرت بجانبني سيارة حديثة لحقت بها و قلت للسائق المحرك عندك ناقصه زيت، تخيل أستاذ عرفت ذلك على الطائر من الصوت فقط...

كان يتكلم بفرح و نشوة و تدفق، دون أن ينتظر مني استحساناً أو إظراءً على مهاراته أو كلمة تشجيع، كان في وجهه عفوية و براءة تدفعانك إلى تصديق كل ما يقول، أو إقناع نفسك بصحة ما يقول، تابع حديثه بلذة غامرة.

أنت تعرف يا أستاذ الدرج جانب المشفى العسكري في منطقة الشيخ أبو بكر، هذا الدرج الطويل العريض نزلته بسيارتي هذه دون أن تهتز أو تقول آه، خبرة و معلية.

تركته يسرد بطولاته و قدراته الفريدة و تاه دماغي في دهاليز همومي، لم أنتبه إلا و أنا في شارع القوتلي و السائق يسألني بنشوة المنتصر، رأيت يا أستاذ كيف أجبرته على الانسحاب؟! هزرت رأسي و عيناى ترسمان إشارة إعجاب دون أن أدري عم يسألني.

دخلنا صالة الانتظار الكبيرة، كانت مفروشة بأثاث قديم كل قطعة منه تنتمي إلى عصر و زي، و في الزاوية قبعت الممرضة وراء طاولة خشبية تأكلت أطرافها، و تقشر دهانها، كانت الممرضة تغط في نوم عميق فوق كرسي فقد أحد مسنديه، تعتمد في توازنها على أردافها الضخمة المتدلالية بتوزع عادل على أطراف الكرسي و غاصت رقبتها بين كئبان لحم الكتفين. و على الجدران صور الرياضيين بقاماتهم الرمحية و قفزاتهم المذهلة، و هناك لوحات كتب عليها (أنزل وزنك عشرة كيلوغرامات خلال شهر واحد فقط) (لا سمنة بعد اليوم)... كانت الإضاءة خافتة، لا ينير الصالة سوى مصباح أصفر مريض، و باب غرفة الطبيب مشرع على مصراعيه.

جلست و جلس ابني إلى جانبي ننتظر، كم هو الشبه كبير بين ابني و بين الممرضة؟! دخل رجل في الخمسين من عمره بأنفاس متلاحقة متعبة، و جسد ريان رجراج، جال بنظره في أرجاء المكان ثم دار في الصالة قليلاً و قال يحدث نفسه، الطبيب لم يأت حتى الآن، ثم جلس جانبي على كرسي هرم، فتأوه الكرسي تحت جرمه و أصدر أنات موجعة، أخذ الرجل يتألف و يجفف عرق وجهه و جبينه بكفيه، ثم بدأ حديثه بهدوء و كأنه يحدث نفسه: إنها السمنة لعنها الله سبب كل علة، منعنتي حتى لذة النوم، ثم بدأ يوجه حديثه إلي: يا أستاذ أنا كنت مثل عود الخيزران، يضربون المثل برشاقتي، كنت سهماً يخترق قلوب الحسان، ثم أطلق آهة عميقة و تابع، لكن لعن الله الوظيفة و أبو الوظيفة، عملت محاسباً في البنك المركزي، و كان علي أن أتخوزق فوق الكرسي ست ساعات متواصلة، يا أستاذ

أموال بمئات الملايين، يجب ألا تغفل عينك لحظة، و يوماً بعد يوم بدأ جسمي يرتخي و يفنش، لكن كنت لولب البنك، حركة الصادر و الوارد، الشيكات و السندات و القروض و الديون، كلها أنا المسؤول عنها، كنت ألقط الخطأ على الطائر.

مرة يا أستاذ ضبطت شيكاً مزوراً، أتعرف كيف ضبطته...؟ نعم من حركة يد الزبون و هو يوقع على الشيك.

عندما أخذ إجازة كان البنك كله يضطرب و تختل فيه الحركة، فيتصلون بي أو يرسلون في طلبي لأحل المشكلة، و بثوانٍ أنهى الموضوع و أنصرف. من سنة تقريباً في البنك المركزي الرئيسي في دمشق وقعوا في خطأ كبير في الميزانية العامة، لم ينحل معهم، طلبوا مني أن أحضر إلى دمشق فوراً، كان الوقت شتاءً و الثلوج سدت الطرق، نقلوني بطائرة خاصة، بساعة يا أستاذ بساعة واحدة فقط أنهيت الموضوع و رجعتني على الطائرة ذاتها.

نظرت إلى وجه محدثي الطفلي الكبير الذي ضرجته حمرة السمنة و حماس السرد، فنذرت ابني الصغير عندما يسرد علي بإسهاب كل ما جرى معه في المدرسة، دون أن يأبه لإصغاء سامعه. عندما أحسّ أنني شردت قليلاً عنه هزّ ركبتي قائلاً أنت معي يا أستاذ؟ أما الجمع و الطرح آه يا أستاذ آه، أنا لا أستعمل آلة حاسبة ستة أرقام... سبعة أرقام أجمعها و أطرحها بطريقة عين مرة...

من أبسط قواعد الأدب أن تصفي إلى محدثك، و تشعره باهتمامك بكل ما يقول، لكنني ضقت بثرثرته المتدفقة، و كدت أن أطلب منه أن يريح رأسي من قصص بطولاته، لكن صوت أقدام ثقيلة أنقذتني، فقد عبر الباب برج بشري رجراج، وقف يتلقت و يبتسم بود، و صدره يعلو و ينخفض بتسارع كمن أنهى لتوه سباق الماراتون استيقظت الممرضة على وقع خطواته و فحيح أنفاسه و وقفت متظاهرة بالصحو و الانتباه، حنى رأسه قليلاً تحية للحاضرين و دلف إلى داخل غرفته المفتوحة تغوص أقدامه في الأرض و جسمه العجيني يأخذ في كل خطوة شكلاً يختلف عن سابقه، تبعته الممرضة ، تتلفت، و تسألنا بالإشارة: من جاء أولاً؟!



دارت التساؤلات في رأسي، هل أخطأت المكان؟ أيمن أن تكون هذه العيادة هي (العيادة التخصصية للغدد الصم و معالجة السمنة) كما كتب على الباب الخارجي، و أنا في الداخل بين أفيال بشرية؟!!

خرجت الممرضة لتدعوني إلى المثل بين يدي (أبو الهول). وقف الطبيب وراء طاولته يرحب بي، و يهز يدي بحرارة، جلسنا و عباراته الدافئة تملأ فراغ الغرفة وداً و حميمية.

- خير إن شاء الله، الشاب الصغير أليس كذلك؟! لا تهتم، من الدواء الأول يرجع غصن بان، حالته بسيطة.

لم يدع لي فسحة لأشرح له حالة ابني و كيف بدأت و أسبابها، تراجع إلى الوراثة يلقي بثقله على مسند الكرسي و سافرت نظراته في سماء الغرفة، و كأنه يهين الوضع الأمثل لخياله و لسانه.

يا أستاذ - لا أدري لماذا يخاطبونني بلقب أستاذ، أترأه لقباً يفرض على المرء أن يكون مؤدباً و مستمعاً جيداً لمحدثه أم أن ربطة العنق الوحيدة التي أملكها و التي أهديت إليّ في عيد المعلم توحى إليهم بالأستذة أم... لا أدري، و لكن كل ما أدريه أن الطبيب انفلت في متعة فريدة يحدثني عن إنجازاته في عالم التثخيف - . أستاذ، الزبون لا يكرر الزيارة... مرة واحدة و دواء واحد و بعدها انظر إلى الغزال الشارد، كان الطبيب يتكلم و تتكلم معه عيناها و حاجباه و غصون جبينه، كل ما في وجهه كان يشارك في الكلام و الشرح و التوضيح. مال إلى جهتي قليلاً و كأنه يفشي إلي بسر لا يجوز أن يسمعه أحد، مع أنه لا يوجد أحد غيرنا في الغرفة مع ابني الصغير، قال هامساً: زوجة نائب المحافظ، و صفة واحدة يتيمة الأبوين و بعدها بدأت تشتري ثيابها من فرنسا مباشرة و بحسب المقاييس الباريسية. ثم اعتدل في جلسته و ابتسم ابتسامة الفائز و تابع بنشوة مسكرة: الراقصة نواعم لا شك أنك تعرفها، ملكة الرقص الشرقي و نجمة المحطات التلفزيونية، جاءتني من دمشق... من الشام خائفة، فقد بدأت الدهون تتجمع في أردافها و خصرها، طمأنتها، و بعد أسبوعين فقط... أسبوعين... بعدها هزي يا نواعم خصرك النحيل، و من هنا جاءت كلمات هذه الأغنية الخالدة.

تراجع الطبيب إلى الورا، صمت قليلاً ينتظر مني تعليقاً على معجزته، و عندما  
يئس من تكرمي عليه بالثناء تابع، مدير بنك التنمية و الإعمار الأستاذ جودت بك،  
خمس سنوات من عيادة إلى عيادة و أخيراً دله أهل الخبرة إلى هذه العيادة ثم...  
عليك أن تسأله... أربعون كيلوغراماً... أربعون كيلوغراماً ذابت في شهر واحد  
و بعدها تمايل يا شجر الحور... معجزة يا أستاذ... معجزة، ثم قهقهه ضاحكاً فخوراً.  
و تابع: عندما عقد المؤتمر الدولي لمعالجة السمنة في سوريا دعنتي رئاسة  
المؤتمر.....

بدأت الأرض تسرع في دورانها و بدأت أشعر بالدوار و الغثيان، خرجت من الغرفة  
مسرعاً و ورائي ابني يلهث و يحاول اللحاق بي.

## التاجر الجديد

ارتقى الحاج علي درجات القبو الحجرية المتآكلة مشيعاً بدعوات زوجته الحازة...  
الله لا يخجلك... الله يفتحها في وجهك... إن شاء الله تمسك التراب فينقلب ذهباً.  
وصل أرض الشارع، ففتح صدره لنسمات الصباح، يعب الهواء البارد، ليطرد رائحة  
العفن المستوطنة في أنفه و رنتيه، أحسّ بنشاط طارئ، و أنه عاد إلى الورااء أربعين  
عاماً، عاد شاباً يعصر الحديد، يوم قلب حجر الرّحى المستند إلى جدار الطّاحون  
أمام كلّ شباب الحيّ، في حين عجز أيّ منهم عن تحريكه، فسار بقامته الفارعة  
مزهوّاً يناطح الغيوم.

كان الحاج علي يعمل حجّاراً، ينحت الحجارة الضّخمة، كان معروفاً بقوّته  
و مهارته، يقبّل الحجر بين يديه كوسادة من الإسفنج، إلى أن كان ذلك الحادث  
الأليم الذي أقعده عن العمل، و لوى ساقه، فقد حطّمها حجر كبير سقط فوقها،  
فصرف كلّ ما ادّخر لإصلاحها، لكنّها لم تعدّ قويّة شابة كما كانت، أصبح يميل في  
مشيته، و يتوكأ على عصا، ثمّ هجر العصا محتملاً الألم، لأنّه تتال من رجولته، و  
وجد نفسه هملاً، لا حاجة لأحد به، فأشفق عليه تجار البناء، و أوكلوا إليه حراسة  
البنائيات التي تبنى حديثاً بأجر لا يعادل ربع ما كان يأخذه أيام العزّ  
و الفتوة، يأتي مع الغروب، و يغادر مع شروق الشّمس إلى قبوه الرّطب، خفاشاً لا  
يخرج إلّا في الظلام.

أحسّ الحاج علي بثقل الصرّة الكبيرة في يده، فنقلها إلى اليد الأخرى، و بعد خطوات  
وضعها على الرّصيف و وقف يستريح قليلاً، قاتل الله الشّيخوخة، كان باستطاعته  
أن يحمل هذه الصرّة بأسنانه، و يدور بها الأرض، و الآن يعجز عن حملها بضعة  
أمتار، إنّها فكرة زوجته الحاجّة فهيمة، منذ أن جمعها سقف واحد  
و آراؤها السديدة ترسم له ما يجب أن يفعل، و ما لا يفعل، كانت طيبة العشرة سقته  
كؤوس السعادة، لكنّها كانت محرومة الثّمار، فلم يرزق منها أولاداً، فعاش معها قانعاً  
راضياً، قالت له:

- لماذا لا تعمل في النهار، فتبيع أدوات التسلية و ألعاب الأطفال؛ كما يفعل جارنا أبو خالد...؟! إنه يعمل ليلاً في معمل البلاستيك و نهاراً يطوف المدينة بعربته، يبيع الحلوى و الألعاب للأطفال، إنه يربح أكثر من عمله الليلي.

أجابها برقة مبطنّة بسخرية مُرّة:

- و من أين لنا رأس المال؟!

إنّها لا تعدم الحيلة، و لا تعجز عن تدبير الأمور، قالت:

- طبق الغسيل النحاسي و القدور و الصّحون النحاسيّة، لم يعد لنا بها حاجة، فأواني الألمنيوم عوّضتنا عنها و عن كلفة تبييضها كلّ عام، و التي تعادل ثمن الألمنيوم، لقد مضى عهد النّحاس يا حاج علي... خذها و بعها...

عندما قبض ثمن أوانيّه القديمة الصّفراء اللامعة كالشمس شعر بفقد صديق عزيز... شعر بفراغ في وجدانه... لكنّها الليرات التي ستجلب الليرات... صعد الباص مع الحشد المتسلّق بصرّته الكبيرة.

- هذا باص و ليس شاحنة.

- انتظر حتّى يصعد الذي أمامك.

- لماذا تدفعني؟!

- يا أخي اتركوا الحريم تصعد أولاً.

- متى نتعلّم النظام؟!

- رجلي يا سيّد، هذه رجل و ليست مسنداً.

- ارفع إيدك يا ابن الكلب.

- من الذي مدّ يده؟ عيب على شرفكم...

انحشر الحاج علي مع صرّته الضّخمة داخل الباص، و الغبطة التي تملأ نفسه صمّت أذنيه عن سماع تعليقات الآخرين، إنّها المغامرة الجديدة في حياته، سيؤمّن دخلاً إضافياً، يرفه به عن زوجته الصّابرة المسجونة بين جدران القبو التي ترشح مياه المجاري الخضراء، سيشتري سجّادة جديدة للصلاة، و مذياعاً صغيراً لسماع القرآن صباحاً، و هذه الكرات العقيقيّة المتقلّبة على نار هادئة، يرمقها من وراء زجاج الآلة الجديدة في دكان جاره، بيضاء متدلّية الرّقاب عند الصّباح ثمّ تتحوّل رويداً

رويداً قرمزية شهية يسيل لها لعابه، تنفذ رائحتها المثيرة إلى خياشيمه، دون أن يتجرأ على السؤال عن ثمنها، سيخترق هذا العالم الغامض و سيشتري فروجة يُفرح بها زوجته التي حدّثته عنها طويلاً، كان يقول لها إنّها طعام الفجّار يا حاجة، هناك أنواع في الجبّة أشهى و أطيب، الجبّة للمتقين الصّابرين يا حاجة، لكنّه الآن سيتذوّق طعم هذه النّعمة على الأرض قبل السّماء.

في المنشية آخر محطة وسط المدينة، وقف الباص، فاندلق الكبار من الأبواب، و الصبية من النّوافذ، و اشتدّ الصّدام بين الصاعدين و النازلين، فركب الحاج علي موجة النازلين مع صرّته، فلم يشعر إلّا و هو يتهادى معها على الأرض آمناً سالمًا، حمل صرّته و بدأ يفتّش عن مكان مناسب يبسط عليه بضاعته، طاف بين مواقف الباصات، حتّى اهتدى إلى رصيف اصطفّ عليه ماسحو الأحذية و بعض الباعة أمثاله، فنشر صرّته على الأرض، هذه الصرّة الطاهرة التي كانت لا ترى الثور، و لا تلمسها إلّا يد الحاجة فهيمة، تضمّ ملابسها الخاصّة، أصبحت تلامس مباشرة أقدار الرّصيف.

رتّب بضاعته و أكثرها للأطفال، و حاول أن ينادي على بضاعته، فخرج صوته ضعيفاً حاداً، فشر بالخجل، فقرّر أن ينادي بصوت خافت، مداراةً للخجل و لرداءة الصّوت. اقتربت منه امرأة مع ابنها، فقال الابن برجاء و دلّال: اشترى لي... اشترى لي... فنهرته أمه، فقال الحاج علي في سرّه: لعنك الله، لماذا لا تريدان أن تُفرحي هذا الطّفل البريء؟ بعدها وقف أمامه شابّ مسترسل الشّعر، قال بغنج: أعطني علكة، فانحنى الحاج علي بحماس و أعطاه قطعة، فألقى الشّاب باستهتار خمس ليرات و انصرف، أشرق السّرور في نفس الحاج علي، إنّ ثمنها ليرة واحدة، ما هذه التّجارة الرّابحة...! كم تمنّى لو طار إلى زوجته و أخبرها عن أوّل بيعة و عاد، قرأ الفاتحة على نيّة التوفيق، و تلمّس قطعة النّقود جيّداً، ثمّ دسّها في جيبيه، و تحسّس وجودها من الخارج، أضاءت عيناه، و راحت تتراقص يمناً و يسرة، تفتّشان عن زيون آخر، و ما لبث أن ارتفع صوته فقد كسرت الليرات الخمس طوق الحياء.

اقترب شابّ أنيق فخفق قلبه، لكنّه تجاوزه إلى صناديق مسح الأحذية المصفوفة بجانبه، فقالت صيحات الصبية: تفضّل هنا... لا تدفع إذا لم تعجبك... جرّب مرة

عندي، فحار الشاب في أمره و وقف عند الصندوق الأول، فجذبه من رجله صبيّ الصندوق الثاني، فشتمه الأول ثمّ نشب العراك بينهما، و كان سلاحهما زجاجات صباغ الأحذية يحملانها في يديها كالحناجر، يدقّ الواحد منهما رأس خصمه، و اندفعا و هما متماسكان إلى جهة الحاج علي، و وقعا فوق بضاعته المرتّبة، فانحنى يبعدهما بنزق، شدّهما بكلّ قوّته، فقد أفسدا البضاعة، و تدخل المازّة و فرقوا بين المتخاصمين فالتفت أحد الصّبيين و شتم الحاج علي شتيمة جارحة، لأنّه أبعده بقسوة آلمته، فقال:

- تأدّب يا ولد، أنا في مقام جدّك...

فتضاحك الصّبية ماسحو الأحذية و كأنّ ضحكهم قد شجّع الصّبي، فأخذ يمازح الحاج علي بالشتائم السوقية، فقد عرف بخبرة أولاد الشّوارع أنّ هذا الشّيخ جديد في مهنته.

اغتاظ الحاج علي، و غابت الفرحة من نفسه، فقد آلمه أن يهزأ به صبية الشّوارع، لملم أطراف صرّته، و رجم الأولاد بنظرة سخط و غضب، و لسانه يلهج باللعنة على هذا الجيل الخبيث، الذي لا يعرف الحياء.

راح يفتّش عن مكان خال من السوقة مناسب لعرض بضاعته، فوجد رصيفاً نظيفاً مدّ عنقه بين شارعين متجاورين، يغصّ بالمازّة، فرش صرّته، و رتبّ بضاعته، و أصلح ما أفسده أولاد الحرام، بدأت الشّمس بالارتفاع، و ازدحمت الطّرق، و ضجّ قلب المدينة بالحركة.

وقفت فتاتان أمام البضاعة المفروشة، و بدأتا تتهاامسان، و رأساهما متلاصقان تشيران بيديهما إلى البضاعة، و تتمايلان بدل العذارى، و الحاج علي ينقل نظراته الملتمة بينهما و بين ما يشيران إليه، و قلبه يرقص، أخيراً قالت إحداهما:

- ما ثمن العلكة؟

تشجّع بعد البيعة الأولى و قال:

- خمس ليرات.

فلوت شفتها استنكاراً و قالت بجرأة:

- ثمنها ليرة واحدة، فلماذا الطّمع؟ أنت شيخ كبير و تغشّ النّاس.

و تدخلت الثانية تؤيد رفيقتها قائلة:

- نعم عيب عليك تغش الناس.

ثم تركناه و انصرفنا، ف شعر بالإهانة، إنه لم يسمح لأحد في حياته أن يخذل كرامته أو أن يوجه إليه كلمة لوم...

(( لماذا تسرعت...؟ نعم، إنه الطمع لعنه الله، كنت ألوم نفسي في سرّي و أمام زوجتي جارنا أبا حازم السّمان على طمعه، و الآن من أول بيعة أسبقه في الطمع، لعن الله الشيطان... لعن الله الشيطان... ))

تقدّم النّهار، فوجدت الليرات الخمس في جيبه رفيقة لها ثمّ رفيقات، ثم أصبحت كرة معدنيّة ثقيلة يربّت عليها من الخارج، فامتلكه فرح عارم فجرّ موهبته باللحن العذب، فانطلق ينادي على بضاعته بحماس و عفويّة، فهو لا يدري هل سمع هذا اللحن من أحد فيما مضى، أم أنّ الإحساس بالنقود حرّض مواهبه الموسيقيّة الدّفينية في أعماقه فجادت بهذا اللحن الجميل، ثمّ يعود بين الفينة و الأخرى، يربّت على النقود، و هو يصلّي على التّبي، و يحوط الكرة بالأدعية و البركات.

تعبت رجلاه من الوقوف، فجلس القرفصاء، لكنّ سنواته السّتين المثقلة بالصّراع مع الحجارة الصّماء و ساقه الملتوية أبنا إلاّ الرّاحة التّامة، فجلس على الأرض جلسته المعتادة متربّعاً، يترنّح و يتمايل مع اللحن الذي اختاره إعلاناً على بضاعته، فقد أسكرته النقود الفضيّة التي راحت تنهمر عليه، انتابه إحساس بأنّه تاجر لا يقلّ عن غيره من التّجار، إنه قادر على العمل و الربح، جزاك الله خيراً يا حاجّة فهيمة، لم أعدم منك في حياتي الطّويلة النّصيحة و الرّأي الصّائب.

مدّ يده يتحسّس حرارة الأرض، ليتأكّد من أنّه في اليقظة و ليس في الحلم، فلم يدرِ إلاّ و الصّرة تطوى أمامه من أطرافها الأربعة، حملها أربعة رجال، لم يشاهد و هو جالس على الأرض إلاّ أحذيتهم العسكريّة، نهض كالنابض الحبيس، و تعلّق بساعد أحدهم، قال مبهوراً:

- لماذا تأخذون الصّرة؟!!

فردّ شرطي أحمر الشّعر أمرد:

- لنتغطّى بها في الشّتاء...

ثم هرولوا نحو شاحنة صغيرة، ركض الحاج علي وراءهم يتأرجح صاعداً هابطاً بساقه العرجاء الملتوية، ماداً يده يستعطفهم بصوته الباكي و بدعواته الحارة، لكنهم ألقوا الصرّة داخل السيّارة، و تسلّقوا جوانبها، و ضحكاتهم الشيطانية تزحم ضجيج الشارع، ثمّ تبتعد مسرعة.

دارت الأرض بالحاج علي دورات سريعة متعاقبة، فاضطربت المرئيات أمامه، و لم يعد يرى شيئاً.

كانت الشمس قد ارتفعت في سماء جرداء، ترسل أشعتها الحارقة، فترتطم بشوارع المدينة و تنكسر شظايا.



## التمثال

كان لقاؤنا في صالة الشاي في فندق (المرديان)، أستطيع أن أصفه بلقاء العمر، أو منعطف العمر، آخر جملة سمعتها منها منذ عشرين عاماً عند وداعنا الأخير و الدموع تبلل كلماتها: (حسام لا تنساني)، وقفت أمامها عاجزاً ضعيفاً، وقف المال بيننا مارداً يأمر و ينهى.

ضاعت (نور)... خطفها ذلك المارد، و طار بها على حصان أسود إلى غرب المدينة، إلى (فيلا) قيل إن ثمنها يعادل ثمن بيوت حارتنا مجتمعة و ربما أكثر. ضاعت (نور) و أنا لا أكاد أحصل ثمن الكتب الجامعية.

ضاعت (نور)... غابت عني في عالم آخر، كنت أراها في أوقات متباعدة من وراء زجاج السيارة بجانب زوجها، يطوق عنقها شتاءً فرو حيوان نادر، و يداعب شعرها الأشقر صيفاً نسيم مكيف السيارة، تنظر إليّ بطرف عينها و السيارة تتهادى كالحلم و تبتعد، فتغشى عيني سحابة داكنة، و تسيح في أعماقي مدية صدئة.

أتراها تذكر أيامنا أم أن حياة النعيم أنستها (حسامي)...؟ الاسم الذي كان يحلو لها أن تتاديني به، أثوب إلى رشدي و أقول و ما الفائدة إن كانت تذكر أو لا تذكر...؟ يكفيني أنني أعيش معها كل يوم في قصر أسطوري بينيه خيالي، أطوف معها قاعاته و حدائقه، و أقطف في الخيال أشهى ثمار الحب.

عشرون عاماً... كل يوم... كل ساعة... عشرات من الرحلات. سرت معها على رمال الشاطئ... ركضنا في حقول البنفسج... لثمننا أفواه الزهر... استلقينا على بساط الغيوم... إنها معي دائماً...

رسمتها على كتبي و دفاتري... رسمتها على قمصاني و على الجدران... على السحب و القمر...

صورتها عروسة للبحر... ملكة للأمازون... عشثروت تبكي أدونيس... نحت التماثيل و جعلتها كيوييد رسول الحب... فينوس إلهة الجمال... كانت ربة إبداع، و قيثارة إلهامي...

مع الأيام بدا طيفها يتوارى عني، أو بالأحرى أنا الذي بدأت أتأخر عن مناداته، تتابع الأولاد، و احتوتني دوامة الحياة، فكان يمرّ يوم أو يومان دون رحلة إلى جزر

الشَّمس أو شواطئ المرجان، ثم شهر و شهران، و أخيراً ركبت قطار الأيام مرغماً، فأخذ يدور بي و ينزلني في كل محطات الحياة، و إذا أنا وجهاً لوجه أمام (نور) في الفندق.

مدّت يدها تصافحني دون أن تنهض، لا أدري أيّ ساعة اخترقت دماغي، حاولت أن أظهر أمامها طبيعياً متوازناً، لكنّ حركاتي المضطربة و الدّم الذي ألهب وجهي فضحت حقيقتي.

- أهلاً (حسام) وبنك بعد هذه الغيبة الطويلة؟!

قالتها بعفوية و لا مبالاة، فارتعشت في صدري زهرات ذابطة، لم أجد جواباً، فاجأني لقاءها و سؤالها، كان بودّي أن أقول لها إنني عشت عمري كله أحلم بك، و لو استطعت أن أقطر سنوات حياتي في ساعة لقاء معك لما تأخرت. أحببتها بكلمات مضطربة خرجت بأحرف مبجوحة:

- أنت دوماً حاضرة في خيالي.

ابتسمت فأشرق وجهها، لكنّ تجاعيد خفيفة ارتسمت على وجهها و عنقها، حاولت على ما يبدو إخفاءها بالمساحيق و الأصبغة، أين بريق الندى الذي كان يفيض من وجهها؟؟!

قالت لي و نثار من الثلج يلامس أطراف كلماتها:

- تفضّل اجلس.

تردّدت لحظة أنظر حولي، ثمّ جلست أمامها على المقعد المقابل، و أنا لا أصدّق أنني أمام (نور)... (نور)... شوق العمر و حلم السنين، عبقت في أنفي رائحة عطرها الفرنسي، نفذت إلى خلايا دماغي فأسكرته، لفت نظري معطفها الفاخر رغم الأضواء الحمراء الخافتة المختبئة في زوايا المكان. كانت الأضواء الناعسة و العطور الفرنسية و الأزياء الأوروبية تنسج عالماً مترفاً يغري بالسعادة.

سكتنا... لم أعرف كيف أبدأ الحديث.

- لم أرك هنا من قبل فما سبب حضورك؟

أنقذني سؤالها و وجدته فرصة للحديث عن نفسي أظهر فيه موهبتي الفنية و شهرتي كأبرز فنّان تشكيليّ في بلدي.

- اليوم افتتح معرض للوحات الزيتية عن الانتفاضة في صالة المعارض في الفندق، و أنا مشارك في ثلاث لوحات إحداها فازت بالجائزة الأولى في معرض الربيع السابق.

- الآن عرفت، كنت أقول في نفسي... زوّار اليوم كثيرون و ليسوا بمستوى هذا الفندق.

وخزني جوابها فأنا لست من رواد هذا الفندق، لكنني حمدت الله فأنا اليوم بأفضل مظهر بمناسبة المعرض.

- هل تحضرين باستمرار إلى هذا الفندق؟

- في أغلب الأحيان، خصوصاً عندما يكون زوجي (عبدو) مسافراً، ماذا أفعل في البيت؟! إنني أشعر بالملل، الوحدة ثقيلة، مللت من الأغاني و المسلسلات - ثم ابتسمت و تابعت - و أشرطة الفيديو و السيديات.

أخرجت علبة سجائر من حقيبتها المذهّبة، أشعلت سيجارة رقيقة طويلة بنيّة اللون و راحت تنفث دخانها بتمهّل شديد، أشارت إلى النادل بيدها فأسرع إليها ملبياً باحترام شديد.

- أوامرك مدام.

التفتت إليّ و قالت:

- ماذا تطلب؟

خفق قلبي... قلت لها و خيالي يحسب كم تبقى في جيبتي من نقود.

- لا أنت ضيفتي فاطمني ما تشائين.

- إذا كنت أنا موجودة في أيّ مكان فالطلبات كلّها على حسابي.

رجوتها لكنّها أصرّت، حمدت الله و قلت لها:

- قهوة...

- ما نوعها؟

هل هناك أنواع للقهوة؟ قلت في سرّي لا بدّ أنّها تسألني عن كمية السكر، أجبتها:

- سكر قليل.

ابتسمت و قالت للنادل:

- واحد قهوة تركية، و واحد... و لفظت كلمة بالفرنسية لم أفهم معناها.  
تراجع النادل ثم انسحب كما جاء بأدب، اغتمت الفرصة، أردت أن أذكرها  
بالمعرض، قلت لها:

- ألا ترغيبين بمشاهدة المعرض؟ اللوحات كلّها عن الانتفاضة.  
- لا، لا... لوحاتنا كلّها نشترينا من إيطاليا أو فرنسا، في زيارتنا الأخيرة منذ شهرين  
إلى (فيينا) اشترى زوجي (عبدو) لوحة بخمسين ألف دولار.  
بدأت نثارات الثلج تكبر و تغلّف كلماتها، أردت أن أخرجها و أن أبين لها ثقافتني  
الفنيّة:

- و لكنّ اللوحة من أي مدرسة فنية؟  
- اشتريناها من أكبر معرض للوحات في (فيينا)، و ليس من المدرسة.  
- أقصد هل اللوحة من المدرسة الكلاسيكية أو التجريدية أو التكعيبية  
أو الانطباعية؟

- لا، لا... ليست طباعية فوتوكوبي، إنّها رسم زيتي بالريشة، (عبدو) الآن في  
اليابان و سيعقد صفقة أكبر مع شركة للموبايلات و حتماً سيشتري هدايا غالية جداً  
كما أوصيته، و ربّما اشترى بعض اللوحات اليابانية، قلت له (الفيلا) عندنا ينقصها  
لوحات يابانية، نسيت أنا ما قلت لك، زوجي (عبدو) يملك أربعة معامل و محلّين  
في العزيزيّة و مزرعتين و شاليه في بيروت...

تكاتف الثلج رغم حرارة قلبي و دفء المكان، و بدأت صورة الملاك الذي رسمته لها  
عشرين عاماً تهتزّ... أين بساطتها و تواضعها و دفء كلماتها...؟ كانت تتحدث  
كالهمس فتزهر الكلمات على شفاهها و ينهمر الياسمين، كُنّا نذهب إلى الحدائق  
سيراً على الأقدام لأننا لم نكن نملك معاً أجرة الباص و مع ذلك كُنّا نسكر سعادة في  
نزهاتنا القصيرة.

عاد النادل، قدّم لها كأساً نحاسيّة طويلة و على حافّتها قطع من الفواكه الاستوائية،  
و قدّم لي فنجاناً من القهوة، أخذت رشفة من فنجاني، حتى القهوة لها طعم خاص  
في هذا المكان، رحّت أتلدّد بنكهة قهوة لا أظنني سأكرّر شربها كثيراً.

اقترب من نور شاب في الثلاثين من عمره، حليق الرأس يرتدي ثياباً من الجينز و تتدلى من عنقه سلسلة ذهبية تتأرجح مع حركاته المتكسرة، مدّت يدها تصافحه بحرارة، جلس جانبها دون أن يهتم لوجودي، مالت عليه فتلاصق رأسهما و غرقا في حديث خافت، لم يصلني منه أي حرف، كانا يتوقّفان عن الحديث فجأة و يطلقان ضحكة يحاولان حبسها ثم يواصلان الحديث، تابعت رشف القهوة متمهلاً... نهض الشاب بعد حديث قصير حار يودّع (نور) بعبارة بالفرنسية (أورفوار مدام)، فردّت عليه (أورفوار فادي). أصبحت (نور) تتخاطب بالفرنسية!!! أردت أن أبين لها أن ما جرى لا يهمني فسألتها:

- كم ولدأً عندك؟

- خمسة.

حاولت أن أحرّك مشاعرها فتجرأت و قلت:

- هل أخذ أولادك شيئاً من حلاوتك؟

اعتدلت في جلستها كمن كان ينتظر هذا السؤال و ردّت متحفّزة:

- بنتي الكبيرة (سوسو) أجمل طالبة في المدرسة، بالمناسبة أولادي كلهم يدرسون في (الإيكاردا) لأنّ المدارس الحكوميّة مستواها لا يعجبني، و (توتو) الصغير قمر، لا أحلى من القمر، هو أحلى من كل أولاد صاحباتي، يقبرني صورّناه على عشرة أشرطة فيديو في كلّ الأوضاع، كيفما سار... كيفما تحرّك... صورّناه و هو نائم و في الحمام، صورّناه و هو يبصق على أخته. و رنّ صوتها يزغرد بضحكة الفرح لما يفعله (توتو) ثم اكتسى وجهها بمسحة من الأسي و تابعت:

- بس يقبرني طلع له حبة في مؤخرته - و لفظت كلمة مؤخرته كما ورد اسمها صريحاً في معجم (تاج العروس) الذي يأخذ بأواخر الكلمات - إنّها تؤلمه كثيراً، بالمناسبة لو رأيت مؤخرته يقبرني مثل قرص العسل بتجنن بيضا على زهري لا أبوسه عندما تنظفه الخادمة إلا من مؤخرته، عرضته على عدة أطباء من أجل حبة مؤخرته، و يمكن أن نأخذه بعد عودة (عبدو) إلى فرنسا لإجراء فحوصات للحبة احتياطاً كي لا تطلع له حبة مرة أخرى.

بدأت عاصفة من الثلج تتسج بيننا جدران سميكة تحجب الرؤيا و تجمد الشفاه.  
وقفت (نور) فجأة لتستقبل سيدتين يبدو عليهما الترف و النعيم، كان لقاؤهن حاراً...  
عناق و قبلات و عتاب، ثم جلسن و انخرطن في حديث نسائي يتكلمن ثلاثهن معاً  
عن الثياب و الموضة و عن صديقاتهن اللواتي لا ذوق لهن في انتقاء الأزياء.  
نسيتهن (نور) و كأنني لم أكن جليسا منذ لحظات، نسيتهن و غرقت في الحديث  
مع صاحبتيها، شعرت بالحرع لهذا الإهمال، قمت فلم تنتبه إليّ، انسحبت بهدوء  
و غادرت إلى صالة المعرض.  
كان أول عمل قمت به عندما وصلت إلى البيت هو تحطيم تمثال (كيوبيد).

## الخفاش

حدّق في الظلام الأعمى... تَلَفَّت يميناً و يساراً، ثمّ تسلّق سور المقبرة بخفّة هزّاً يافع، و انسلّ إلى داخلها مستنداً على أحد القبور الملتصقة بالسُّور، إنّه يعرفها قبراً قبراً، هي مملكته... عالمه الصغير و الكبير، يقضي بين قبورها نهاره، و أحيين قليلة خاطفة جزءاً من ليله الأسود، مهنة ورثها عن آبائه، و لم يجد يوماً منافساً له في هذه المهنة.

تلمّس طريقه بين القبور، كان الليل قد طمس كلّ شيء، فالأعمى و المبصر سواء في هذا الحلك الصّامت، وصل قبراً مهجوراً نزل فيه بسرعة، و أخرج عدّة الحفر التي أخفاها نهاراً، و اتجه نحو هدفه بقلبٍ فُدّ من الصّخر، تلمّس التراب الطّريّ، إنّه القبر الجديد، أمامه ساعة قبل أن ينشقّ ثوب الليل، و عليه أن ينهي كلّ شيء، بدأ بالمجرّفة يزيل التراب المكوّم، وصل إلى طبقة التراب النديّة، لم يبقَ أمامه إلاّ صفيحة الحجر التي تسدّ فتحة القبر، ترك المجرّفة و عالج الحجر الكبير بالفأس، ترحز الحجر قليلاً، تناول طرفه بيده، و رفعه، أخرج من جيبه مصباحاً يدويّاً صغيراً و وجّهه إلى فتحة القبر، فبان الكفن الأبيض، و تميّز عما في هوة القبر من حلّكة طاغية، كان حديد الأعصاب، لا يخاف شيئاً، و كيف يخاف و هو الذي يحتضن الموتى صباح مساء، يقلّبهم بين يديه، و يوسّدهم مثواهم الأخير، و يطوف بينهم، ساعات نهاره... إنهم عالمه... إنهم أصدقاؤه...

انبعثت من القبر رائحة البخور ممزوجة برائحة الموت و الرطوبة، لم تكن الرائحة غريبة عنه، و لم تكن المرّة الأولى التي يفتح فيها قبراً في الليل - رحم الله النباش الأول - منذ شهرين تسلّل إلى قبر لطفل من أسرة غنيّة، أبت أمه أن يفتش التراب، فطلبت أن يُلفَّ بغطاء صوفيّ فاخر، أخرج الغطاء من القبر ليلاً، و سوّى كلّ شيء، لكن زوجته، رفضت أن تتدبّر به، قالت: إنّها تتوجّس منه، فهو يوحى بالموت، لكنّ أمّه كانت أكثر جرأة، بل ربما جعلها الرّمن و معاشره رجل يحفر القبور خمسين عاماً تتقبّل الأمر و تراه طبيعياً، قالت له: أعطني الغطاء يا بنيّ، زوجتك معدنها فقير، و راحت تُدْفئُ به عظامها - كما تقول - في الشّتاء القاسي.

لكنّ ضيف مملكته هذه المرّة يختلف عن كلّ الضيوف الذين نبّش قبورهم من قبل... ضيف حياته أقرب إلى الوهم أو الخيال... ضيف ملاً فمه في حياته بالذهب، يضحك فتبرز أسنانه المذهّبة التي يغشيها سواد التبغ و بقايا الطعام، و تُضيء كمصابيح بعيدة... يضحك ضحكته الصفراء، فيعقبها الظلّمة و القهر... الجميع يتسمون له خوفاً... أليس هو الخوف بعينه؟!... ونحنون له باحترام كاذب إشفافاً من كلمته أو غضبه... إته الرعب الذي يمتلك نفوسهم، و يغشي عيونهم، و يسكن قلوبهم... لقد جاءت ساعة الانتقام... الانتقام لكلّ بسطاء الحي... لكلّ الرّجال الذين أدلّهم أمام نسائهم.

أنزل رجلاً ثمّ أخرى، فتدحرج حجر أكبر من حجم الكهف، و سقط على رأس الجثة، حاذر ألاّ يهيل التراب أو الحجارة كيلا يعوقه ذلك عن مهمته، أضاء المصباح اليدوي مرّة أخرى، و تلمّس الرأس!!... أبعد يده بسرعة... سرت في كيانه رعدة قاتلة، الجثة دافئة، و شيء لزج بين أصابعه... إنه الدم... اضطربت رجلاه، و كادت رجولته أن تخونه... يعرف بخبرته الطويلة أن الجثة بعد دفنها بعشر ساعات تكون باردة... ثبت قليلاً، أحسّ أنّ أنفاسه بدأت تتسارع...

أيترك كل شيء و يهرب؟!... أيسويّ القبر ثم يعود إليه في الليلة الثانية؟!... أم يحي الخوف من جديد؟ خاطب نفسه: لم أعرفك بهذا الجبن و التردد، أنت رجل و عليك أن تبقى رجلاً حتى النهاية... عليك أن تثبت...

في هذه اللحظات مرّ بقربه كلب و أخذ ينبح على التراب المكومّ، فتناول حجراً كبيراً و رماه به، لكنّ الحجر أخطأ الكلب، فازداد نباحاً و هياجاً.

إنّه موعد رقاد الكلاب، فلماذا لم يرقد هذا الحقيّر، فربما كشف أمره، ألقمه حجراً آخر، أصاب منه مكاناً موجعاً، فابتعد الكلب قليلاً، و أخذ ينبح بصوت فيه بحة الألم، ثم بدأ يبتعد رويداً رويداً.

كان انشغاله بالكلب قد أعاد إليه شيئاً من اتزان، و أبعد الخوف قليلاً عن نفسه، لقد صمّم على متابعة المهمّة، أخرج من جيبه كمّاشة و هبط أرض القبر، وجّه المصباح إلى وجه الجثة، أبعد الشاربين الكئيبين اللذين يغطيان الفم، و أخذ يعالج الأسنان المذهّبة، نَدّت عن الجثة آهة خفيفة، أعادت الفوضى إلى أعصابه، لكنّه نزع سنّاً



واحدة، سلّط عليها ضوء المصباح، إنّها سنٌّ ذهبية، لكنها ملوّثة بالدم الأحمر... الميّت حيٌّ، فالدم يتخثّر و لا ينزف من جثة الميّت، هذه خبرته و خبرة من ورث عنهم هذه المهنة الفريدة.

حدّث نفسه، لماذا التراجع؟!... ألم تكن تحلم بهذه اللحظات سنين طويلة... تحلم بلحظات الانتقام من (( أبو كاسر ))، جئت تأخذ أسنانه المذهّبة انتقاماً للذّل الطويل الموجع، فإذا بك تأخذ أسنانه و حياته...

سيفرح الجميع إذا علموا بغزوتك الليلية هذه... فكم حلموا بأن يفعلوا مثلما تفعل... أصابته نوبة جنون مفاجئة، و هوى على الفم المدمّى ينزع الأسنان بسرعة و اضطراب، كان أنين الجثة قد بدأ يرتفع، لكنه لم يبال بهذا، و داس برجله على رأس (( أبو كاسر )) و شاربيه المعقوفتين يريد أن يصعد، فأحسّ بأن يد الجثة قد أمسكت به من رجله، سرى في جسده خدر مرعب، سيطر على قمة رأسه، ربما كان هذا مجرد وهم!! لكنّه انتزع رجله من يد الجثة، و اعتلى أطراف القبر حتى وصل إلى حافته، أراد أن ينتصب واقفاً، فإذا برأسه يصطدم بساقين منتصبتين داخل سروال فضفاض، زاغت عيناه، و رأى أن السماء قد انشقت و أن صاعقة ملتهبة قد سقطت على رأسه... جاءه الصّوت المدمر (( أنت يا أسود )) إنه صوت (( أبو كاسر ))... إنه الخوف يتجسد أمامه... يقف مباعداً ما بين رجليه و بجانبه كلب ضخم تلمع عيناه وسط الظلام... صاح الأسود صيحة مزّقت الليل و السكون، و أيقظت الأموات ثم سقط في هوة القبر من جديد مغشياً عليه.

## السُّلْم

تمدّد على سريره و أغمض عينيه ليريح ذهنه المكدود، لكنّه لم يستطع أن يصرف تفكيره عن تكرار خطوات الدرس و فقراته و أفكاره، و كيف سيشرح كلّ فكرة و يطرح الأسئلة و كيف ستكون احتمالات الجواب. لقد كرّر ذلك مرّات و مرّات حتّى حفظه غيباً، كما يكرّر المحبّ رسالة الحبيب الأولى و يحفظها.

إنّه الدرس الأوّل، أو بالأحرى الاختبار الأوّل، و منه سينطلق، قفز خياله يمتطي بساط الريح... يزور مدن الأحلام... يُلوّن صُورَ المستقبل بما يشتهي...، سوف يُفهم ابن (( المعلم )) الدرس الأوّل بسهولة، و سينال العلامة التامة في اختبارات المدرسة، و سيخبر أباه بقدره هذا المدرّس البارِع، و بالنتائج التي تحقّقت على يديه، سوف يُسرّ (( المعلم )) و يطلب منه أن يدرّس بقيّة أولاده في البيت، و ستكون النتائج ليست مرضية فقط بل مذهلة، و ربّما كان عند (( المعلم )) ابنة ذكيّة، و ستكون جميلة حتماً رغم دمامة أبيها و تضاريس وجهه و كرشه، ستعجب به و تقع أسيرة حبّه، دون أن يوليها اهتماماً، و ستتدخل أمّها راجية منه أن يرحم فتاة صغيرة، ذنبها أنّها أحبّته، سيرفض في البداية ثمّ يوافق مكرهاً على خطبتها... قطع عليه منبّه الساعة رحلة اللحم البهيج، قفز من السرير مع أن أمامه وقتاً طويلاً، الاحتياط واجب، حلق ذقنه مرّة ثانية بعد حلاقة الصباح و ارتدى أفضل ثيابه، سرح شعره و نظر في المرآة الصدئة، إنّه في قمّة الأناقة... نزل درجات السُّلْم الخشبي.

(( لعنه الله من سلّم... سأصعد اليوم سلماً آخر... ))

ودّعته صاحبة البيت العجوز بكلمات الإعجاب من مظهره الأنيق، هزّ رأسه موافقاً بارتياح على ملاحظتها، خرج يسير متمهلاً، أمامه ساعة و أكثر، تسكّع على الأرصفة، وصل مشياً إلى الإدارة العامّة قبل نصف ساعة من الموعد، حيّاه العسكري عند الباب الخارجي، فردّ باقتضاب، الوقت يسير ببطء، بسط الكتب و الملخصات و أوراق المسودة و كلّ ما يلزم لدرس مثالي.

حان الموعد... استعد... دقّ قلبه، جفّ حلقه، انتظر و انتظر... الوقت يا فارس  
بني حمدان ما أثقله، مرت نصف ساعة طويلة طويلة... و قلبه لا يكفّ عن  
الخفقان.

دخل الحاجب يعلمه أن ابن (( المعلم )) مرّ بالمرسيدس مسرعاً و أخبرهم من  
الشارع على عجل بأن وراءه عملاً هاماً و سوف يؤجّل الدرس.  
صدمه الخبر، شحب وجهه... بردت أصابعه... قام يلعن في سرّه حظّه المعاند، كاد  
أن يطاء أولى درجات السلم، لكن ابن المعلمّ الوغد = لعنه الله و لعن أباه = هو الذي  
منعه من مغامرة الصعود...

كانت درجات السلم الخشبيّة تننّ و هو يصعد إلى غرفته فوق السطح فتصدر عن  
كل درجة نغمة تختلف عن رفيقاتها، عدا الأخيرة التي تجاوزها لأن السوس نهش  
قلبها.

شرب كأساً من الزهورات، تمدّد و أسلم دماغه المتعب إلى النوم، و لكن النوم أبى  
أن يعانق أجفانه.

(( ما أصعب تحقيق الأحلام... كيف يريح شخص خمسين مليون ليرة  
باليانصيب...؟ كيف يُكتشف كنز في بيت قديم... كيف يتزوّج شاب فتاة غنيّة...  
كيف يُعيّن الوزراء و السفراء و مديرو الشركات...؟ ))

قفز كالمسوع، لقد نسي أن يسأل عن الموعد الجديد الذي حدّده ابن (( المعلم ))،  
كيف له أن يعرف...؟ لقد أوصدت من جديد.

(( لعنك الله أيها الحظ الجبان... لماذا تخاف كلّما اقترب الفرج...؟! لماذا لا تكون  
جريئاً تفتحم الأبواب و تتخطى الأسوار؟! ))

ساعات مرهقة قضاها منتظراً انقضاء عطلة نهاية الأسبوع، و عندما دخل الإدارة  
العامة سارع إلى سؤال الحاجب:

- ألم يحدّد ابن (( المعلم )) موعد الدرس القادم؟!

ردّ الحاجب أسفاً:

- آه نسيت أن أخبرك يوم الخميس.

- ماذا قال...؟! بسرعة...

- قال: لا تنتظره حتى يحدّد لك الموعد القادم.

نظر في وجه الحاجب نظرة كريمة و تمتع:

- لعنك الله أنت أيضاً أيها الأهل.

اتّصل به (( المعلم )) رئيس الفرع أكثر من مرّة، و سأله عن أشياء كثيرة عن الجاهزيّة و عن عدد العناصر إلّا عن الدّرس. انقضى يومه الأوّل، و تتابعت أيّام الأسبوع، و القلق يأكل دماغه و لا أحد يلمّح أو يذكر شيئاً عن الدرس، تمنّى أن يسأله (( المعلم )) بل همّ هو أن يسأل (( المعلم )) لكنّه لم يتجرّأ.

أخذ الأمل يخبو... كان يجلس وراء طاولته يائساً مطبق الجفنين كهراً منبوذ، تذكّر مثلاً كانت تردّده جدّته (( افرح كلّما ضاقت ))..

هل يفرح أحد للضيّق، لا بدّ أن يُطلّ الأمل ذات يوم...

لم يتأخّر الأمل هذه المرّة فقد أطلّ بوجه الحاجب يخبره بأنّ ابن (( المعلم )) يريد على الخط الخاص، أمسك سمّاعة الهاتف كمن يمسك برقبة لصّ يريد أن يهرب...

- نعم... نعم أنا... حاضر... عندما تريد... أنا دائماً دون عمل... تحت أمرك... غداً... نعم، نعم... في الساعة السادسة مساءً... مع السلامة، مع السلامة. وضع سمّاعة الهاتف و هو ما يزال يردد مع السلامة، مع السلامة.

كان بوّده أن يقفز، أن يصيح، لكنّه تمالك نفسه، لقد توهّج الحلم من جديد، جلس يستعرض حلمه صورة صورة، يضيف إليه، يزخرفه و يلوّنه بألوان الفرح.

تمدّد على السرير استعداداً لدرس العمر، و ما كاد يسلم جفنيه لغفوة القيلولة حتى تراحمت عليه الأحلام باسمة مشرقة، عاشها بلذّة، تقلّب في فراشه عدّة مرّات ثم استقرّ على ظهره، فضاقت تنفسه داخل الغرفة الحارّة و علا شخير، فإذا مارداً أسود بعينين مشتعلتين ينظر إليه غاضباً، مدّ يده يريد الإمساك به، هرب منه، صعد درجات سلّم بيته الخشبي، داس الدرجة الأخيرة النخرة، فهوت به إلى الأرض محطّمة في طريقها كلّ درجات السلّم، نهض مذعوراً... يستغفر ربّه

و يلعن الشيطان و دسائسه... ما هي إلا أضغاث أحلام... نعم أضغاث أحلام، كانت جدّته تقول له: (( يا بنيّ الأحلام تتحقّق بعكس ما يرى النائم ))، راح يحلّل أسباب هذا الحلم المزعج، يحاول أن يجد تفسيراً مقنعاً له، لا شك أنّه بسبب وجبة

الغداء الدسمة المؤلفة من الفول و المخلل و البصل التي أنهكت دورته الدموية، فسببت له هذا الكابوس.

قام يستقبل تلميذه بكل ما يستطيع من بشرٍ و احترام.

جلس ابن (( المعلم )) مكانه وراء الطاولة، و جلس هو جانب الطاولة يباعد ما بين ساقيه و يميل بجسده على الكتب و الملخصات بشكل آلم عموده الفقري فلم يأبه لذلك، ألم يقل شاعر الحكمة:

و إذا كانت النفوس كباراً      تعبت في مرادها الأجسام

- لا أريد أن يطول الدرس، عشر دقائق أو ربع ساعة.

- كما تريد.

- هيا.

بدأت دقائق قلبه تتسارع و تعلو، حتى خشي أن يسمعها ابن (( المعلم ))).

- الدرس الأول: عوامل ازدهار الأدب العربي.

- ما هذا؟

- الدرس الأول.

- أيّ درس؟

- الدرس الأول في الأدب.

- و من قال لك أنني أريد دروساً في الأدب؟

- السيد والدك أخبرني بذلك.

- أنت لم تفهم من والدي، أنا أريد دروساً في الرياضيات، اللغة العربية مادة سخيصة،

أدرسها و أنا نائم.

ثم غرس في وجهه نظرة حاقدة و قال:

- لقد أضعت عليّ موعداً هاماً.

خبط الطاولة بيده، و نهض مسرعاً يكاد ينفجر غيظاً تاركاً وراءه مزق الأحلام

تبعثرها رياح الحظ العاثر.

## النمر

استيقظ على أصوات الجرافات و آلات الحفر وراء غرفته مباشرة، خاف أن تخطئ أسنان إحدى الجرافات، فتقضم الجدار الأخير الفاصل بين غرفته و بين مشروع باب الفرخ الشيطاني، نهض مع نوبة من السعال العميق، و عندما وقف في وسط ساحة الدار، زم عينيه المتكسرتين، و مدَّ قامته المتخشبة، ينظر إلى فندق ( الشيراتون ) الذي يعلو بناؤه يوماً بعد يوم، انتابه إحساس بالهزيمة، الإحساس الذي يقتحمه كلما رأى هذا الفندق اللعين، و هو يتناول بقامته الأنيقة، منذراً حيَّ ( بحسيتا ) و أهله بنهاية مفاجئة.

لقد سكن هذه الغرفة منذ أربعين عاماً، واحدة من بين غرف الدار الكبيرة ، التي كانت تملكها ( أم سعدون ) هذه المرأة التاريخ، التي كان لها في غابر أيامها أيادٍ بيضاء و خدمات لا تتسى على هذا الحيِّ و قاصديه، و عندما ذبلت ثمارها و أحالها الزمن على التقاعد أخذت تستثمر الدار فتؤجر كلَّ غرفةٍ من عُرفها للأفراد و الأسر الفقيرة كغيرها من دور ( بحسيتا )، فكانت أشبه بفندق قديم أو خان من خانات العهود البائدة.

لم يذكر أنه دفع أجرة قطّ، و هل يجرؤ أحدٌ على مطالبة ( النمر ) بليرة واحدة!!! كانت ( أم سعدون ) مرتاحةً في قراراتها لوجوده، كان يشعرها بالأمان ، يحميها و يجبر من يتأخر عن سداد الإيجار على الدفع أو الإخلاء السريع، دون إنذار أو قرار من محكمة، إنه هنا يمثل كل السلطات، فهو المشرِّع و القاضي والمنفِّذ.

ماتت ( أم سعدون ) و بقيت الدار مشاعاً، لم يكن لها من يرثها، و لم يكن يعرف أحد من أين جاءت، شأن الكثيرين و الكثيرات من قاطني هذا الحي و قاصديه، إلى أن صدرت الأوامر بإخلاء الدار.

خرج إلى شارع ( بحسيتا ) محنيّ الظهر متهدل الشاربين، الصمت سيد المكان بعد أن كان ( النمر ) سيّد المكان، الدكاكين مُغلقة، و البرد يأكل أطراف الأصابع، صمّتٌ أشبه بصمت صحارى الجليد، الكل رحلوا أو ماتوا، و /المبغى/ أُغلق، والخراب يحاصر الحيّ من كل جانب.

وقف في ألق الصباح على البلاطة النائئة عند باب / المبغى /، عرشه أيام العز و الفتوة، تلفت في كل اتجاه، لا أحد سوى القطط التي تموء و يلاحق بعضها بعضاً في شهر الإخصاب، هل يصبح ملكاً على / مبغى / القطط بعد أن كان ملكاً على / مبغى / ال...؟!!

أشعل سيجارة من التبغ الرخيص، فأعقبها بسعلة طويلة جافة ثم بصق على الأرض، إنه لا ينسى ذلك اليوم المشهود الذي تُوج فيه ملكاً على ( بحسيتا )، عندما عاد إلى المبغى ثملاً، أخذ من ملحمة / الديب / السكين الكبير، و رفعه فوق رأسه سيفاً يلوح به، وقف على البلاطة النائئة بقامته المديدة و شعره الأشقر المسترسل و وجهه الجميل الذي ضرجته حميا الخمرة، قطع الشارع و أوقف حركة المازين، و منع الجميع أن يدخلوا أو يخرجوا حتى رجال الشرطة المكفون بحراسة / المبغى / خافوه و تراجعوا، و من ورائهم ( بنات الهوى ) يراقبون جميعاً سورة جنونه، إنهم يعرفون إقدامه على ارتكاب أية جريمة في حالة صحوه، فما بهم و قد أعماه السكر.

الكل أغلقوا دكاكينهم و هربوا، و خلا الشارع، لكن حماراً يسير مطمئناً لا يدرك ما يحدث، لجأ صاحبه إلى ركن آمن، و تركه يواجه قدره وحيداً، أزعجه هذا الحمار، لماذا لم يفزع و يهرب ككل عباد الله؟ لا بدّ أن الحمار يتحدّاه! أمسك السكين بكلتا يديه و هوى بكلّ قوّته على رقبة الحمار، فانفصل جزء من الرأس و تدلى على صدره وسقط يتخبط و ينتفض فوق بركة من الدم الحار، التي أخذت تتسع، و كأن منظر الدم قد أثار غريزة النمر العدوانية، فأخذ يلوح بسيفه في الهواء، و يصيح طائشاً غاضباً.

- أين الرجال؟! أين القبضايات أصحاب الشوراب؟ هل صاروا حريماً؟!

فقد صوابه و غداً مجنوناً حقيقياً، و راح يشرخ بسيفه اللماع أبواب الدكاكين الصفيحية، و ربّما أراد أن تكون ثورته هذه رسالة مفتوحة للجميع، لكل من تحدّته نفسه أن يتحداه أو ينافسه.

لقد غدا منذ ذلك اليوم سيّداً مهاباً، حتى ( بنات الهوى ) خفن منه و أحببته و تسارعن إلى الحظوة به، فقد كان رجلاً بكل معايير ذلك المكان و مقاييسه، ثم أخذ في الأمسيات الجميلة، يعتلي عرشه، يسرح نظره في عباد الله الضعفاء، يأمر و

ينهى، و من حوله أتباعه و مريدوه، ينفذون كل ما يشير إليه، عاش متوجاً من غير تاج، و اليوم!!!

نزل عن عرشه، و اتجه شرقاً، استقبله ( جامع العمري ) غارقاً في الضياء، و منذئذ الزاهدة في زخرف الحضارة تستقبل قبلات الشمس، و من ورائها انتصبت الأبنية الستة العملاقة على أنقاض حي ( البندرة ). أحس بالاختناق، إنه محاصر كجرذ، كل يوم يضيق الحبل حول عنقه، حتى باب / بحسيتا / الشمالي سُدَّ، و شُيِّد فوقه مبنى مديرية الثقافة.

وصل الفرن الوحيد الصامد في الحي، أخذ رغيفاً ساخناً، و بدأ يقطع بيده لقمماً ثم يمضغها كالأرنب بمقدمة فمه الذي فرغ من الأضراس و الأنياب.

كان النمر يأخذ كل ما يريده دون أن يسأل، وهل يخطر ببال أحدهم أن يعترض على تصرفاته؟! لقد طرح أرضاً أعتى رجالات ( بحسيتا ) و جندلهم بسكينه أمام أعين الجميع، سألت دماؤهم، و ترك على وجوههم آثار فتوته التي لا ترحم، دخل السجن مرّات، ثم خرج بقامته المنتصبه مرفوع الرأس، معقوف الشاربين، اعتاد الناس أن يعطوه دون مقابل، أو بالأحرى يأخذ ما يريده دون أن يعترض أحد، خافه الجميع، و أحبوا رجولته، ثم أصبح ما يأخذه عادة و عندما أطلت نذر الشيخوخة، راحو يعطونه عطفاً أو صدقة، لكنّه لم يعد يجروء على دخول ملحمة ( الديب ) لأن أولاده قد شبّوا و أصبحوا رجالاً، فاكتفى بالقليل الرخيص.

وصل مقهى ( الأرنب ) زاوية منسية شمال ( جامع العمري )، ينفتح أمامها الخراب و أكوام التراب، اتخذها الأرنب مقراً له بعد أن ابتلعت الجرافات دكانه على كتف الشارع، وضع ألواحاً مهترئة من الخشب ضلعاً للزاوية، ثبتها على شجرة هرمة، لم يبق منها إلا جذعها الأجوف، و سققها بألواح من التوتياء، التقطها من الخراب الشامل حوله، و بقيت ضلع المقهى الرابعة مفتوحة على الفضاء الواسع، في الوسط مدفأة من الحديد الصدئ، تلتهم كل ما يقدم إليها من خشب و كرتون و أحذية بالية، ثم تعيده دخاناً خانقاً، و قد استقر فوقها إبريق الشاي الذي تحول إلى كرة سوداء.

ألقي النمر التحية، و بعد وقت قصير ردّ الأرنب على تحيته بصوت كسول دون أن يلتفت، (( رحم الله ذلك الزمان الذي كان فيه الجميع يقفون رهبة منه



و فرعاً )) في الزاوية بقايا رجل لم يبق في وجهه إلا العظام، و قد تجمع على نفسه و انطوى كما يطوى كرسي الرّحلات، و في الزاوية المقابلة ترّبع على الأرض رجل أقرب إلى المومياء، بعين واحدة، يهرف بكلام طويل، لا أحد يصغي إليه أو يفهم منه شيئاً.

جلس النمر على كرسي من البلاستيك كان صندوقاً للفاكهة، جلس ببطء و هو يطوي جسده المتصلب، قدّم له الأرنب كأساً من الشاي، فتابع قضم رغيفه مع الشاي الساخن المعطّر، أحس بدفءٍ لذيذ يسري في أوصاله اليابسة، استرخى ينعم بحرارة المدفأة على الرغم من دخانها الخانق الذي يركم الأنوف و يسيل الدموع، جال بنظراته الجامدة في زوايا المقهى المتهالك، ثم قال لصاحبه بيأس:

- حاصرونا.

رد عليه الأرنب بعينين ساهمتين و صوت يخرج مع نفس عميق:

- لكل شيء نهاية.

- إلى أين نذهب!؟

- إلى جهنم الحمراء!!!

بعد صمت قصير قال النمر ساخرًا:

- وهل تستقبلنا جهنم!؟

- بحسب عملك.

- أظن أن أعمالنا الحسنة ستعجب جهنم.

- إذن عجلّ و احجز لك فيها مكاناً.

ثم ضحك فبان جوف فمه الوردى الخالي من الأسنان، ضرب النمر ركبته بكفه

الواهنة ثم نهض بتثاقل و هو يقول:

- عليّ أن أسرع لأحجز فيها مكاناً قبل أن تنفذ المقاعد.

ثم تابع بعد ضحكة ساخرة:

- سوف أحجز لك مكاناً بجانبني.

خرج من المقهى يتلفت يميناً و يساراً، الدكاكين التي كانت تغنى بالحركة و النشاط أخرستها الأقفال الصدئة، سار يسحب ساقيه المتعبتين كقائد مهزوم يمر بساحة المعركة ليشهد مأساة نهايته.

وصل الدار، و عندما فتح باب غرفته، كانت أصوات آلات الحفر ما تزال تهدر، صخب الحياة يضج وراء الجدار و لكن الفزع تملّكه، عندما شاهد شرخاً على امتداد الجدار يتسع رويداً رويداً، لقد أنذروه بالإخلاء أكثر من مرة، و لكن أين سيذهب؟! ( إنه الفصل الأخير من المأساة يا نمر ).

أراد أن يهرب و لكن إلى أين، لم يشأ الرحيل قبل أن يلقي نظرة على عرشه، يودعه الوداع الأخير، عاد إلى شارع / بحسيتا /، لا يدري ماذا يفعل... مرّ أمام / المبغي / المغلق، فإذا بهرّ يحاصر هرة فوق البلاطة النائئة، و مواؤهما الحاد يجرح جلال الصمت، شعر بالإهانة ( أفوق عرشه؟! ) ركلهما بقدمه لكنهما تسمرا مكانهما و اتجها نحوه بنظرات تحدّ، وقفا في تحفز للوثوب عليه، ( حتى الهرر لم تعد تخاف منك يا نمر ) هجم عليهما، فنزلا عن البلاطة و وقفا أمامه يزفران بغضب، و في عيونهما شيء لم يره من قبل، ماذا لو انقضا عليه بمخالبهما و أنيابهما المسنونة؟؟؟ استيقظت في نفسه بقايا معتقدات تشربها مع حكايات جدته، الجن يتخلق بصورة القطط، داخله شيء من الخوف تلفت حوله يستأنس بأي مخلوق، الشارع مقفّر و الهدوء يلف الحي بأكمله، هل يهرب؟! هل يهرب النمر من الهرر؟؟!

من بعيد شبح قادم من جهة الشرق... من بين الأبنية الستة العملاقة، نظر بعينين كليتين نالهما و هن الشيخوخة، و عندما اقترب الشبح منه، عرف من صوته أنه بائع دخان مهرب، إنه فتى في ميعة الصبا، يلبس بنطالاً من الجينز، و ينتعل حذاءً رياضياً ليساعده على الجري و سرعة الهرب من دوريات الجمارك، قصير ممثليء العضلات، يمشي بخفة و كأنه كرة من المطاط، و قد انتفخ وسطه بعلب الدخان، و عندما اقترب من النمر رفع صوته:

- مالبورو، كنت، لوكي... مالبورو، كنت، لوكي.

أراد أن يطرد الفلق الذي يغزو دماغه بمحادثة الفتى مع أنه لا يدخن هذه الأنواع  
الفاخرة من الدخان المهرب، سأله:

- بكم علبة المالبورو؟

تطلع الفتى إلى النمر بوجه شوهته الندوب و آثار الطعنات، و قال:  
- بسبعين ليرة.

رد باستغراب وهو يفتح عينيه إلى أقصاهما:

- بسبعين؟!

أجابه الفتى بنبرة جافية:

- تدخن المالبورو و لا تعرف ثمنه؟! حبيبي هذا ليس مشروبك!!!

- ليس مشروبي؟!

- هذا مشروب الأكبر منك.

اجتاحت النمر جائحة من نزق الجهالة، و انتفض كبرياؤه الجريح و قال بنبرة  
صارمة:

- مشروب الأكبر مني يا ابن الساقطة؟!

انقلبت ملامح الفتى إلى صورة شيطانية، و لمعت في عينيه عدوانية آثمة، تلفت  
حوله، الموت يخيم على المكان، و بحركة خاطفة، كانت مديته الحادة تستقر في  
خاصرة الملك و هو على عرشه فوق البلاطة النائثة، و بخطوات أسرع من طعنة  
المدية، توارى دون أثر. أحس النمر بجمرة حارقة تخترق أحشاءه، ندت عنه أنه  
متماوتة، وضع يده على كبده المتمزقة، و الدم يفور من جرحه الغائر، ركع أول مرة  
في حياته... ركع فوق عرشه، ثم خرّ يشخب دمه و يسيل فوق الرصيف القذر و  
يستقر في البالوعة الكبيرة أمام / المبعى / القديم المغلق، و ليس من شاهد على  
سقوطه إلا القطط التي تموء و تلعق دمه نخب مهرجان الإخصاب.

## الوظيفة

اجتازت السيّارة بنا الحارات القديمة المتعرّجة، مخلفة وراءها الغبار و صخب الأولاد و أصوات الباعة، و خرجت إلى الشوارع النظيفة.

ألقيت رأسي المرهق إلى المسند الإسفنجي الطري، و عيناوي تطوفان الأبنية الأنيقة الصّامته.

نبرة البوّاب الجافّة ما تزال تفرع أذني (( انتقت الإدارة من توقّرت فيهم الشروط... المدير لا يريد إزعاجاً... هيّا انصرفوا )).

كم هو كربه وجه هذا البوّاب!!!

كانت هذه الوظيفة أمل الأسرة جميعها، سيكون الخبر فاجعة لوالدي الذي يحلم بإصلاح سقف البيت.

منذ وعيت و السّقف يبكي شتاءً و والدي يحلم صيفاً و مرّت السّنوات و جراح السّقف تنزف.

شوارع جميلة هادئة، و أبنية تغرق وسط الأشجار و العرائش، عجباً... أين الأولاد؟! ألا ينجب سكّان هذه الأبنية أولاداً.

قال ابن عمّي و يده على مقود السيّارة:

- ما أجمل السّكن في هذه البيوت، يعيش الإنسان هنا العمر عمريين.  
أجبتّه دون أن ألقت إليه:

- أيشترى العمر الثّاني أم يسرقه!؟

قال:

- فلسفناك هذه سنتعبك.

صمتّ دون أن أعلّق على جوابه، كنت ذاهلاً عنه و عيناوي تسيحان في هذا العالم السّاحر فشجّعه صمتي وتابع وعظه...

كم سرت مع سميرة في هذه الشّوارع الخالية من الفضوليين، و عيون الرقباء، لا أحد هنا يلتفت إلينا، قالت سميرة مرة و يدها تترتاح في يدي زنيقة ربيعية فأحس بنداها و

طراوتها:

- أريد مثل هذا البيت.

و أشارت بيدها الأخرى إلى بناءٍ يشاد حديثاً و يُصَفَّح بالرخام الأصفر، أجبتهَا:

- إنني لا أحبّ اللون الأصفر، إنّه يوحي بالكآبة.

و أشرت إلى بناءٍ غطّت جدرانهُ العرائش المتسلّقة، فلم تعد تظهر منه إلاّ التّوافذ كعيون الحسّاد، و تابعت أقول:

- أنا أحبّ مثل هذا البيت، كم يليق بحبيبين مثلنا!! إنّه عش السّعادة الحقيقي.

فزق صوتها بضحكة - آه كم أعشق ضحكتها - و انفرجت شفتها لترسم وجهاً آخر لذلك اليوم الرّبيعي، فتكوّم أنفها الصّغير، و ارتفعت أرنبتهاه تهتّزان.

صرّ صوت مكبح السيّارة، فاندفع جسمي إلى الأمام، كادت السيّارة أن تدعس كلباً تأخّر عن سيّدة مسنّة، فهرعت إليه، و هي تبربر، و ترشقنا بنظرات حداد. مدّ ابن عمّي رأسه من نافذة السيّارة و قال لها:

- ألا يوجد عندك غير هذا الولد!!!

ثم انفجر بضحكته الصّاخبة الصّافية، فظهرت أسنانه النضيدة المصفرة من أثر التبغ، تابعت السيّارة انطلاقها، التفت إليّ ابن عمّي و قال:

- إنهم يعتنون بكلابهم و يخافون عليها أكثر مما نخاف على أولادنا، رأيت هذه السلسلة الذهبية في رقبة الكلب...!!!

يا لطيبة قلبك يا بن عمّي، كم أحسدك على هذه النّفس الرضيّة التي لا يعرف الهَمّ طريقاً إليها، لقد نفعتك تقصيرك، أخفقت في دراستك و تركت المدرسة مبكراً و أصبحت صاحب ورشة للخياطة تملك بيتاً و سيّارة، و تريح الكثير، و أنا ماذا نفعتي علمي!!! إنني ما أزال أتسكّع على أبواب الشّركات و الإدارات أستجدي وظيفة مؤقتة لأساعد هذا الشّيخ المتهدّم الذي أفنى عمره ليعلّمنا، إنك فزت بقلب أختي ضياء، تستطيع أن تحقق أحلامك، و أنا المتعلّم في سنتي الأخيرة في الجامعة، أضعت كلّ شيء... أضعت عمري عنكبوتاً أمام حروف الكتب السّوداء... أضعت سميرة، سرقها منّي صاحب سيّارة طويلة فارهة...

وقفت السيّارة فجأة أمام مبنى مؤلّف من طابقين، عبرنا مدخل الحديقة، فاستقبلتنا رائحة الياسمين، ضغط ابن عمي محمود زرّ الجرس، فانسابت منه أصوات جوقة

من الحساسين، فتح الباب فأطلت امرأة ما لبث أن أشرق وجهها بضحكة عذبة  
عندما رأت ابن عمي، قالت مرحبة:

- أهلاً، تفضلاً.

و أفسحت الطريق تتقدمنا في ممر معتم، زُين ببعض اللوحات الفنية الحديثة و هي  
تنثر عبارات الترحيب.

مشيت صامتاً و كأنني في معبد، فقد انتابني شعور بالرّهبة، وصلنا صالة واسعة  
فرشت بأثاث ينم عن ذوق متحضر و في الزاوية منضدة متقلّة غصت بزجاجات  
الخمير.

كانت ممثلة الجسم إلى حدّ الإثارة، يلفّ جسمها ثوب أزرق يضبط تمرده من الأمام  
أزرار بيضاء كبيرة تُرك زران أو ثلاثة في أسفل الثوب حرّة سائبة، جلست أمامنا  
بتكاسل و ملل، و جلست على طرف المقعد بأدب أجمع رجليّ و أضم يديّ بينهما.  
بدأت توجه عتابها الرقيق إلى ابن عمي على تقصيره في زيارتها و تناسيه لصدقتها،  
إن لها لهجة خاصة محببة، تجذب السامع بل تأسره، و صوتاً دافئاً يجعلك تأنس  
إليها و تثق بها (( آه يا بن عمي لو كان لي صداقة معها لما انقطعت يوماً عن  
زيارتها )).

قالت بلهجة الخبير:

- زائر أم تاجر؟!

أجابها ابن عمي ضاحكاً:

- الاثنان معاً.

قالت:

- أهلاً بك و بضيفنا الجديد، ثم رمقتني بنظرة متفحّصة فشعرت بالخجل  
و الارتباك، لا شك أنّها قرأت تاريخ مولد بنطالي و حذائي المخرميين، أضافت:

- لم تعرّفني بالشاب!!

قال باهتمام:

- إنّه اسماعيل ابن عمي، شاب مؤدّب مجتهد يدرس في الجامعة و ظروفه الماديّة  
تضطرّه إلى العمل في وظيفة مؤقتة ليساعد أهله.

تضاءلت في نظرها حتّى أصبحت ذبابة حقيرة، سامحك الله يا محمود، لماذا وضعتني في هذا الموقف؟ ما أصعب أن يظهر الرّجل ضعيفاً أمام امرأة! تابع يشرح لها وضعي و يطلب منها مساعدتها لتعييني في مديريّة الرّعاية و الخدمات التي أعلنت عن حاجتها إلى موظّفين مؤقّتين. رفعت رأسها تحدّق في لا شيء، و هي تمضغ شفتها السفلى المكتنزة و تردّد بصوت خافت... الرّعاية و الخدمات... الرّعاية و الخدمات...

ثم قالت:

- نعم، قضيتكم عند منذر بيك، بسيطة.

ثم وجّهت كلامها إليّ و قد شعّ في عينيها الجدّ و القسوة:

- هذه تكلفك راتب أربعة أشهر.

تملّكني الاضطراب، حاولت أن أجيب لكن لساني جمد في فمي، فأدركت بحسّ خبيرة بخفايا النفوس خجلي، فالتفتت إلى ابن عمّي قائلة:

- هيه ما رأيك...؟ موافقان؟!

(( ما أرقّها امرأة و ما أقساها تاجراً! ))

قال ابن عمّي بلهجة الاستعطاف:

- يا ست دنيا الحالة كما شرحت لك، ثمّ هي وظيفة مؤقتة، و أنا أعرف أن جهودك تعادل الكثير لكن...

فقاطعته و قد لانت كلماتها قليلاً:

- أنت لا تعرف ماذا تكلفني هذه القضية، و المبلغ الذي طلبته لا يكفي دعوة واحدة لمنذر بيك.

ألقت رأسها إلى الوراء و صمتت برهة ثمّ تمتت كمن يحدث نفسه:

- لا شيء دون مقابل... لا شيء دون مقابل...

قامت بحركة لا مبالية و كأنّها تريد أن تنتهي المساومة، فانحسر رداؤها كاشفاً عن فخذين بيضاوين ملفوفتين و انحنت تقدّم لنا لفائف التّبغ، فاندفع نهداها البضان من فتحة الثّوب العليا و التصقا ببعضهما بحنان دافئ، ثم دلفت إلى ردهة داخلية تسير بغنج و دلال، و تهزّ عجزها المكتنز المتكوّر، فحرّكت في نفسي رغبات دفيئة

و استيقظ الجوع المزمّن في أعماقي، غابت لتفسح لنا وقتاً للتشاور، قال ابن عمّي بصوت خافت:

- ما رأيك؟! موافق؟!

قلت و عقلي تأئه:

- لا أدري.

اختلطت في رأسي صورة الست دنيا بصوة جميلة زاهية، سأصبح موظفاً محترماً أقبض كلّ شهر مبلغاً لا يستهان به، سأصبح رجلاً كبقية الرجال أعمل و أريح، انتابني شعور غامض بالحبور.  
قال ابن عمّي:

- قل بسرعة، ليس لدينا وقت...

أجبتة:

- ما رأيك أنت؟!

قال و هو يحدّق إليّ:

- الرّأي رأيك، فأنت صاحب الشّان.

لقد أصبحت من أصحاب الشّان بهذه الوظيفة العظيمة، أحسست بالمسؤولية، حقاً إنّ تقرير أمر ما يحتاج إلى الجرأة و الحزم.  
قلت مستسلماً:

- موافق، أربعة أشهر و بعدها تُفْرَج.

عادت الست دنيا تحمل القهوة، قدّمتها إلينا، ثمّ جلست عن يميني قرب آلة التّسجيل و عبثت بأزرارها، فتهدت ألحان موسيقا ناعمة تنتشر الأنس و الرّاحة، ثم اتكأت بمرفقها على حامل آلة التّسجيل، فتباعدت فتحات الثّوب بين الأزرار، تضيء جزءاً كبيراً من عتمة نهدها، فشرعت أرتشف القهوة على ألحان هادئة تهدد الأحاسيس، و أختلس النّظر إلى الست دنيا فعوى في داخلي وحشّ سجين غاضب و تنفّس الشّباب في عروقي، و امتدّت سحب الصّيف حازة متقطّعة، لكنّها سرعان ما تبعثرت عندما نهض ابن عمّي ينهي الزّيارة، خرجت و نشوة غريبة طارئة تسكرني.



## الولادة

اشتدّ صراخ فاطمة و برزت عروق وجهها و عنقها، مدّت يدها تستغيث بأمّها، كانت الأمّ ساكنة واجمة، تنظر إلى ابنتها بعينين بلهاوين، و القابلة أمام فاطمة مهتمة و قد بللها العرق، قالت القابلة:

- حضّري مغليّ اليانسون يا أمّ جابر.

أعادتها مرّتين، و في الثالثة تحرّكت الأم كإنسان آلي متّجهة إلى المطبخ، اجتازت ساحة الدّار بهدوء و صمت، يُخال لمن يراها أنّها تعمل و هي نائمة، كانت تنتظر ولادة ابنتها بشوق لتصبح جدّة، تُرى أين تبخّر شوق الانتظار؟! ما لها ساكنة كتمثال مشوّة؟! لن تنسى هذه الليلة الليلية، لقد اضطرّتها ابنتها إلى الخروج ليلاً لإحضار القابلة، و هي لا تعرف كيف يكون الرّفاق بعد الغروب، خرجت من الجّوم إلى باب الأحمر تجتاز الحارات المتلوية ملتقّة بملاءتها السوداء التي تلامس الأرض، و منديلها ينسدل على وجهها، فلا تكاد ترى موطئ أقدامها.

حدّثت نفسها، ماذا لو كشفت عن وجهها؟! إنّ ستار الليل سيحببها عن العيون، لكن أين العيون؟ المدينة نائمة و إيقاع الصمت عميق، تجرّأت للمرة الأولى منذ ثلاثين عاماً و أسفرت عن وجهها خارج المنزل، إنّّه لقرار جريء، لكن لا... عليها أن تكشف عن العينين فقط، فربّما حدث شيء ليس في الحساب، ربّما فاجأها رجل من إحدى الزوايا المظلمة و رأى وجهها.

انسابت ابتهالات السحر من حناجر المآذن نديّة صافية، فأحسّت بشيء من الطّمانينة تهدد هواجسها، إنّها المرّة الأولى التي تخرج فيها بعد حلول الظّلام، لكنّها الآن مرغمة، إنّ ابنتها في مخاضها الأوّل، و صراخها لم يعد يحتمل.

(( جزاك الله خيراً يا فاطمة، و نجاك من محنتك، لماذا اخترت هذه الليلة المظلمة؟ لماذا لم تنتظري أسبوعاً آخر، فتكون نوبة عمل زوجك في النّهار، فلا تضطرينني إلى هذه المغامرة؟!)).

كان وقع أقدامها يرنّ فوق حجارة الطريق المتعرّجة، فيُسمع له صوت عالٍ لم تكن تتوقّعه، كان لِهائِتها صوتٌ مسموع، حاولت كتمان كل نأمة حتى لا تتبه أحدًا إلى وجودها، لكنّ إحساساً بالوحشة و الرّهبة يسيطر على دماغها، و خيالات شتى تتسج حولها شباكاً من الخوف، رفعت رأسها إلى السّماء تستمدّ منها العون و القوّة، فلم ترَ إلاّ نجومًا بعيدة تتهامس، فأخذ لسانها يلتمس الأدعية و الصلوات، أسرعَت منحرفة شمالاً إلى باب سوق القطن المغلق، فبدا لها قاتماً عملاقاً، وصلت إليه و انحرفت يميناً باتّجاه باب القلعة، إنّ أمامها شارعاً مهجوراً تدير الخانات القديمة ظهورها إليه، فلا منزل فيه، و لا أثر لمخلوق.

سقط قلبها حين سمعت اصطدام كائن خلفها بالأرض، هل رآها أحد من قميل أحد الحمامين على جانبي الطريق؟!... أحسّت بصوت خطوات مسرعة خلفها، خافت أن تلتفت، و بحركة غريزيّة سترت عينيها، و شدّت عليها ملاءتها الفضفاضة متجمّعة على ذاتها، لتتحصّن أمام كلّ طارئ.

علا صوت دقات قلبها حتّى أصبحت تسمعه بأذنيها، ازدادت سرعة الكائن خلفها، أرادت أن تركض، و لكنّ رجليها لم تستجيبا لها، و كأنّهما شدّتا إلى الأرض بقوّة خفيّة، و أيّ رجلين تستطيعان حمل هذا الجسم المترهّل؛ و تجريان به؟! لا تذكر أنّها ركضت منذ ثلاثين عاماً، منذ أن كانت في العاشرة من عمرها، يوم وضعت الحجاب و أقيمت مقام النّساء، اقتربت الخطوات منها أكثر، هل تلتفت لترى من يتبعها؟ قبضة قويّة أمسكت بذراعها أذهلتها، التفتت لترى وجهاً متلفعاً بشملة داكنة لا تظهر منه إلاّ عيناّن متقدتان كعيني قط في مغارة، و شاربان تطلّ ذؤابتاهما من تحت خمار الوجه، فقدت أم جابر صوابها، و تجمّد الدّم في عروقها و تراجعت بلا وعي مسندة ظهرها إلى الحائط، و القبضة تطوّق ذراعها، كان مصباح الشارع يرشح نوره الأصفر المريض من منعطف الطريق، فلا تبين الأشياء بوضوح، أرادت أن تصرخ، لكنّ من يسمع صراخها!؟

- أين كنت؟
- خرج صوته كريهاً ممزوجاً برائحة الخمرة الرخيصة.
- ما... ما... ما كنت...
- لا تكذبي... أين كنت؟ أنا أعرف أمثالك...
- اب... اب... ابنتي.
- هل ابنتك معك؟ أين هي؟
- اب... ابنتي في البيت.
- كانت يده الضخمة ما تزال تهصر ذراعها الممتلئة الواهنة.
- ابنتك في البيت؟ أم تركتها عند عشيقها؟!
- حاولت أن تقلت يدها من قبضته، لكنه مدّ يده الأخرى، و نزع المنديل الذي يستر رأسها و وجهها و ألقاه على الأرض، فبدا شعرها مبعثراً، فخيّل إليها أنها تقف عارية أمام كلّ الرجال.
- أبوس إيدك.
- أخرج من جيبه سكّيناً حادّة مثلثة الرأس و ركزها في حنجرتها بحركة مضطربة.
- إن تحركتِ غرزتها في حلقك و دفنتك في قميل الحمّام.
- أبوس إيدك اتركني.
- هل غيري أحسن مني؟!
- أنا امرأة شريفة و الله العظيم.
- و أنا رجل شريف.
- ثمّ احتدّ و قال:
- و هل تحسبيني ندلاً غير شريف؟! أنا أبو دياب يا ساقطة.
- أزاح الشملة عن وجهه و أطبق بشفتيه الغليظتين على فمها البارد، فأدارت و جهها و صرخت مستتجدة بصوت ميت، فقال:
- لن يسمع صوتك إلاّ عزرائيل.

ثم أخذت لهجة الغضب تمتزج بالتهديد، فقال و أسنانه مطبقة:  
- إذا لم تطاوعيني فسأقتلك.

غرز السكين قليلاً في حنجرتها بيدٍ مرتعشة، أحسّت بالألم في حلقها، فخافت في  
سورته الوحشية أن يذبحها، قالت بشيء من التهديد:  
- سأخبر زوجي و إخوتي بكلّ ما تفعله، أنت لا تعرفهم.

خرج صوتها كمواء قط حبيس، فضحك ضحكة مقرفة و قال هازئاً:  
- هل ستقولين لهم لقد كان أبو دياب زوجاً آخر لي في الليلة الماضية؟؟ سيطلقك  
زوجك و سيدبحك أخوتك.

صمتت تفكّر فيما قال، هل تستطيع أن تخبر أحداً؟! اهتزّ كيائها لخبر الفضيحة ثمّ  
عادت إلى التوسّل و الاستعطاف:

- الله يسترك استرني، أنا امرأة شريفة متزوجة و لي أولاد.

- أقول لك طواعيني يا امرأة، لقد نفذ صبري.

- الله يسترك ابنتي في مخا...

- يبدو أنّك لن تفهمي بهذه اللغة، إذاً تعالي...

ترك ذراعها و طوّق عنقها بيده الضخمة و قال مهتاجاً:

- اتركيني أضمك إلى صدري... اتركيني أر اللحم الأبيض الذي لا يعرف الشمس.  
كانت بين يديه القويتين دجاجة تستغيث.

بدأ الماء يغلي فوق موقد الكاز، و أمّ جابر مستندة إلى جدار المطبخ، تحدّق في  
الماء دون أن تراه، علا صوت القابلة:

أين أنت يا أمّ جابر؟! أين رحّت؟!...

أخرجها الصّوت من ذهولها، فتحرّكت بفتور تُعدّ مغليّ اليانسون، و تنهى إليها الآن  
صراخ فاطمة حاداً يشحذه الألم، و عندما دخلت الغرفة شاهدت ابنتها منقخة الوجه،  
جاحظة العينين، و العرق يسحّ من وجهها و كتفها و عنقها.

- ادعي لي يا أمي... ادعي لي أن يرزقني الله صبيّاً.

حدّقت أم جابر إلى ابنتها بوجهٍ عابس صارم دون أن تفوه بكلمة.  
اشتدّ صراخ فاطمة فجأة، ثمّ هدأ لينبثق صراخ منقطع من مولود جديد أطلّ على  
الدنيا، فتتهدّت فاطمة مرّات ثم قالت متلهّفة:

- ماذا يا أمّي؛ صبيّ أم بنت؟!!

قالت القابلة مهدّئة:

- اسكتي يا فاطمة، يجب ألاّ تتكلّمي الآن.

نظرت أم جابر... إنّ المولود أنثى. اكفهرّ وجهها و أطلّ غضب صامت من  
عينها.

- ماذا يا أمّي؟ لماذا لم تزغردِي؟ لماذا لم تفرحي بولادتي؟ يبدو أنني ولدت بنتاً.

حدّقت أم جابر في الوليد طويلاً، ثم طفرت من عينيها دمعتان كبيرتان و انخرطت  
في بكاءٍ حار.

## أبو أحمد

ألقوك داخل الزنزانة المظلمة، و أغلق الباب الصدى، و بغريزة فأر مطارِد قبعتَ في الزاوية متجمّعاً على نفسك، فغمت أنفك رائحة البول و الرطوبة و العفن، و راحت عيناك تحدّقان في الظلام، تكتشفان معالم المكان، فلم تر على الضوء الذي يرشح من شقوق الباب سوى شبح طاولة قليلة الارتفاع. مرّت ساعات لزجة و أنت في زاويتك ينهشك البرد و الخوف و الذهول... الذهول من الأحداث التي تتابعت خاطفة مباغته.

عندما فاجأتك مجموعة ببنادقهم، و أنت في فراشك بجانب زوجتك (أم أحمد)، سحبوك من تحت اللحاف دودة ترتجف، و قد ساعدهم على ذلك جسدك الضامر و قامتك القميئة.

اعترض طريقكم ابنك أحمد عند الباب الخارجي، كان في السادسة عشرة من عمره، طويلاً شديد النحافة، أقسم و جسمه يرتعد ألاّ تمرّوا إلا من فوق جنتّه، لكنّ لظمة من يدٍ حنون أوصلت دم شفّتيه إلى أعلى الباب، و أعادته إلى سنّ الطفولة يحبو. كان صوت زوجتك و توسّلاتها تتبعكم، تصعد وراءكم درجات القبو المتأكلة، و ما تزال عباراتها الجريحة حتى الآن ترنّ في أذنيك (يا أبو أحمد لا تتركنا وحدنا) (يا أبو أحمد ما لنا غيرك).

دفعوك داخل سيّارة مغلقة و أنت حافٍ بثياب النوم، كانت عيونهم تلمع ببريق الانتصار، ينظرون إليك بابتسامات شامته، خرجت من بين شفّتيك بعفويّة عبارة لا تدري من ألفها أو لفظها:

- أين تأخذونني؟!

- اسكت يا كلب...

و كاد يهوي بيده الحنون على وجهك، تذكرت شفة ابنك أحمد المدمّاة. ألبسوك كيساً أسود غطّى رأسك حتى الصدر، أسكرتك رائحته، فظننت أنّه جورب لأحد العساكر، جاءك صوت غليظ و أنت وسط الغرفة:

- اسمك محمد الخطيب؟

- نعم يا أبو الشّباب.

جاءتك ركلة على ظهرك ألقنتك على الأرض.

- قل سيدي يا ابن ال...

فنهضت مبهوراً متألماً.

- اسمك محمد الخطيب؟

- نعم يا سيدي.

- أبوك اسمه أحمد؟

- نعم يا سيدي.

- أمك اسمها نادية؟

- لا يا سيدي، اسم أمي فادية.

- فادية!! بدأت تتلاعب و تكذب؟!!

- معاذ الله يا سيدي، شوف هويتي.

- عملك؟

- أعمل بناءً يا سيدي.

- تعمل بناءً و أنت تحمل ماجستير في الفلسفة اليونانية من جامعة السوربون.

- و الله يا سيدي لا أفهم ما تقول.

- لا تفهم؟

- لا و الله، يا سيدي أنا لا أعرف أقرأ و لا أكتب، فكيف أعرف ما تقول؟

- لا تعرف!! الآن ستعرف كيف تقرأ و تكتب سبع لغات، رئيسك حسين الطباش

ادعى أنه حمار مثلك لا يعرف القراءة و الكتابة، تبين في النهاية أنه يحمل دكتوراه

في الاقتصاد السياسي من جامعة كاليفورنيا!

- من هو حسين الطباش يا سيدي؟

- حسين الطباش لا تعرفه؟... قل لي آخر مرة اجتمعت فيها مع جماعتكم.

- أي جماعة يا سيدي؟

- أي جماعة! احك و إلا عرفتك كيف تحكي.

- يا سيدي تقصد جماعتي التي أعمل معها في البناء، أبو حسن نقو، و خالد

الطشي.

جاءتك ركلة على بطنك ألقتك على الأرض ثانيةً تتلوى، أنهضوك و أمسك بك شخصان لتقوى على الوقوف.

- قل لي: أنت و محمود الجبال و سعيد المر، و هناك كلب رابع معكم ما هو اسمه؟

- من هؤلاء يا سيدي؟!!

- رؤساء التنظيم يا...

- أي تنظيم يا سيدي؟

- أي تنظيم!!! يبدو أنك ستتعبنا معك!

- أستغفر الله يا سيدي.

- لن تعترف إذاً!!!... خذوه.

- يا سيدي...

استعدت كل هذه الأحداث و أنت في زاويتك المظلمة ترتجف و تنتظر، هداك تفكيرك الطائش في هذه اللحظات إلى أن تلمس آيات الله لعلها تساعدك في محنتك هذه. غاب كل شيء عن ذاكرتك، لم تستطع أن تستحضر أي كلمة، كان دماغك يقلب في الخيال صفحات القرآن الكريم، لكنّها بدت له بيضاء، لم تجد سوى أن تردد كلمة (( الله )).. حتى كلمة (( الله )) كانت تخرج متقطّعة.

فجأة أضيء المكان بأنوار باهرة أعشت عينيك، و ارتفعت أصوات استغاثات مؤلمة من أشخاص يُعذّبون بشكل مريع، ثم استطعت أن ترى بوضوح الطاولة وسط الغرفة و عليها آثار دماء.

ربما افتعلوا هذا السيناريو لينالوا من عزيمةك، و لكن هل بقي لديك عزيمة؟؟ و بعد خمس دقائق فتح الباب الصدى، و دخل ثلاثة عمالقة، وقف اثنان كحرس عند الباب و وقف أضخمهم في المقدمة يغطي شارباها الأسودان أكثر وجهه، تخيلته الشجاع الأقرع الذي يأتي الموتى الذين كانوا لا يدفعون الزكاة في الحياة الدنيا، أغلق الباب و عيناه المملوءتان بالجمر تطوفان المكان تبحثان عنك، عثر عليك مختبئاً في زاويتك، كنت بغريزة حب الحياة تتجمّع على نفسك، و تندس في زاويتك التي تتحصّن بها، تقدّم منك بخطوات ثقيلة تكاد تغوص في الأرض، أحسست بأنّ نصفك



الأسفل قد أخذ بيتهل بالماء، رحمت بعفوية تسعطفه  
و تسترحمه، تستحلفه بالأنبياء و الصالحين، لكنّه لم يسمع و لم يعر كلماتك انتباهاً،  
قلت في سرّك: لا بدّ أنّه أطرش، نعم... و ربما كانت عاهته هذه تساعده على القيام  
بمهمّته دون أن يتأثر أو يشعر بالحزن على ضيوف منتجعه.

أمسك بك من حزامك بيد واحدة، و رفّعك إلى فضاء الغرفة، فرحت ترفرف كعصفور  
تائه، و أنت تحلّق، عاد لسانك إلى كلمات الاستجداء و الاسترحام، و لكن ما جدوى  
هذه الكلمات إذا كان الشجاع الأقرع أطرش يصدع بما يؤمر و لا يسمع ما تقول؟؟!  
أسلمت أمرك إلى الله، و التمسّت الشهادة، فطاوعتك كلماتها، فرمّا كانت كلماتك  
الأخيرة لكي تموت على الإيمان.

دار بك في الفضاء دورات لا تدري عددها، لكنّ رذاذاً من ماء بنطالك أصاب وجهه  
و شاربیه، مسح وجهه بيده الثانية، إته الماء!!... فتوقد الجمر في عينيه  
و اشتعل غضباً، في هذه اللحظات، و أنت بين برزخ الدنيا و برزخ الآخرة،  
و ملك الموت يمسك بالقلم و يستعدّ لتدوين اسمك في سجلّ الواردين، نادى صوت  
من نافذة صغيرة في الباب الصدى:

- أبو الهول، اتركه، في اسمه اشتباه.

تأنّى أبو الهول قليلاً بعد أن التفت إلى مصدر الصوت، تضاعف غضبه، لقد أفسد  
عليه الصوت لذّة الانتقام.

أنزلك من السماء السابعة إلى حضيض الغرفة و ألقى بك بنزق في الزاوية فأحسست  
بالصدمة لذيدة بالنسبة لما كنت تتوقع من ارتطام ببلاط الزنزانة.

و أنت في دوامة الانبهار لمت نفسك، لقد تسرّعت، و ظننت الرجل أطرش، فقلت  
في سرّك حقاً (( إنّ بعض الظنّ إثم )).

## حلّها المهيّوب

كان صباحاً خريفياً كالحأ ، بشمسه الوانية و هوائه المحمّل بالغبار، فزاد من كآبتي و أطلق من جديد الهواجس في رأسي، ترى ماذا يحدث لو حكم عليّ بإخلاء البيت...؟ سأرمي في الشارع...

وصلت القصر العدلي مبكراً، فبدا لي كوحش مخيف، أعمدته الرّخاميّة السوداء كأسنان تتّين مطبقة، سيلتهمني و يلقيني و أسرتي عظماً مبعثرة على قارعة الطّريق. كانت السّاعة الثّامنة فلم أر غير الحراس، سألت أحدهم:

- متى يفتح القصر؟

أجابني بجفاء:

- بعد ساعة.

- و لكن...

- انصرف من هنا.

شرعت أطوف حول القصر، أطوف و أدعو الله بصدق و رجاء، أقتل الوقت و الوقت يتنّاب و يتمطّي.

عند التاسعة، دخلت القصر أوّل الدّاخلين، فلم أر أحداً في الممرّات و الأروقة، سوى فناجين بيضاء، تدخل الغرف ملأى بالقهوة، ثم تخرج ملأى بأعقاب السّجائر، و ضحكات طويلة رثانة تتسرّب من الأبواب، رأيت باب أحد المكاتب موارياً، فخطر لي أن أسأل من بداخله عن قضيتي، دفعت الباب بهدوء، و دخلت مسلماً، فلم أسمع رداً على سلامي، فظننت أنّ أحداً لم يسمع صوتي الخافت، كرّرت السّلام رافعاً صوتي، فلم يأبه أحدٌ لي، فانتابني الخجل و الارتباك، حاولت التّغلب عليهما بالسّؤال عن قضيتي، فلم يزد أحد الموظّفين إلّا أن صرّ وجهه، فلمعت عيناه ببريق الازدراء، و أشار بيده يطردني من بلاطه، لا تسل حينها عن الشّعور الذي اجتاحني، شعور بالحنق و الامتهان و القرف، تدفّق الدّم إلى رأسي حارّاً، فجمعت شتات نفسي المهانة، و خرجت أرى كلّ شيء يهزأ منّي و يقول: من أنت أيّها الغرّ في حرم القانون!!؟

شاهدت رجلاً يدخّن بشره، يعبّ من سيجارته أنفاساً عميقة، سألته:

- متى يحين وقت المحاكم؟

أجابني منفجراً:

- ألا تعرف متى يشرفّ البيكوات، يبدو أنّك زبون جديد في هذا القصر.  
فلويت شفّتي دون جواب متحامياً غضبه المفاجئ.

بدأت الممرّات تمثليّ و تختنق بالنّاس رجالاً و نساءً، سماسرة و محامين، ظالمين و  
مظلومين، مفترين و أبرياء، و ارتفعت الأصوات، و اشتد اللغظ، فكاد القصر على  
رحبه أن يتقيّأهم.

وجه أبيض ريّان يبتسم لي وسط الزّحام، ظننت أوّل الأمر أنّه ينظر إلى إنسانٍ آخر،  
تلفّت فلم أرَ أحداً يبادلّه نظرة، فأيقنت أنّه يقصدني، فاغتصبت ابتسامة رغم ضيقي أردّ  
بها على التّحيّة الصّامّة، فاقترّب منّي مصافحاً بحرارة، كان يرتدي بزّة رماديّة أنيقة  
ترينها ربطة عنق حمراء، و عيناه العسليّتان اللامعتان تشعران بالنّقة و الطمأنينة، رحت  
أسائل نفسي، و أنا أردّ على تحيّاته و مجاملاته، ترى من يكون؟ أين صادفته؟ إنّ  
مودّته الزّائدة تدلّ على أنّه يعرفني و أنّ بيننا لقاءات و علاقات، خجلت أن أسأله من  
أنت؟ أو أين كنّا نتقابل؟ و شرعت أنبش بسرعة في ركام ذاكرتي عن صورة لهذا  
الإنسان فلم أعثر له على أثر، قال بصوت دافئ مريح:

- خيراً... عسى ألا يكون هناك ما يُقلّق!؟

أجبتة:

- لا... إنّها قضية بسيطة.

قال باهتمام:

- لي أصدقاء كثيرون في القصر العدلي ينتظرون خدمة لي.

- لا اريد أن أحملك مشاكل.

ردّ بحماس:

- ماذا تقول يا رجل!؟!!

ثم أردف:

- ما هي مشكلتك؟

شرحت له قضيتي باختصار فقال:

- تعال معي.

- إلى أين؟!!

- تعال...

و أمسك بيدي و سار أمامي، يقودني و أنا وراءه أهرول، خرجنا من رواق إلى ممر إلى ردهة واسعة، وقفنا أمام رجل أسمر ينتصب كالعملاق، تبدو عليه الهيبة و الجد، يحمل بيده حقيبة سوداء منتفخة، بادره صاحبي قائلاً بلهجة استعطاف:

- أستاذ، إذا تکرّمتم، لنا رجاء، صديقي عنده مشكلة بسيطة.

فازداد العملاق انتصاباً و قاطعه قائلاً:

- ألا تعرف مشاغلي و دعاويي؟ ثم إنّ أمامي الآن مرافعة حاسمة في محكمة الجنايات.

و شرع يتشاغل بالنظر إلى ساعته و إلى آخر الرّدهة و كأنّه يبحث عن شخص مهمّ ينتظر قدومه، فالتفت إلى صديقي المجهول و قال:

- حظك من السّماء، إن قبل الأستاذ سمعان استلام دعوتك.

قلت:

- و كيف يستلمها؟ و من هو؟!!

نظر إليّ باستغراب، و اتّسعت عيناه و قال:

- ألا تعرف الأستاذ سمعان...؟! إنّه أشهر محامٍ في القصر، لا يوجد إنسان إلّا و يهاب كلمته، القضاة جميعاً يحسبون له حساباً خاصّاً، و يخافون سطوة لسانه.

قلت:

- و لكنني لا أريد أن أوكل محامياً الآن، فربّما تصالحنا، أو حُلّت القضية دون محام.

أجاب و قد ارتسمت الدّهشة على وجهه:

- نعم... ماذا تقول؟! أتريد أن تخسر البيت و تدفع تكاليف الدّعوة، و ربّما تلقى في السّجن.

قلت:

- و لكنني...

فقاطعني بحدّة:

- اسكت.

ثم التفت إلى العملاق و قال بتودّد و رجاء:

يا أستاذ سمعان، الأمر بسيط، لكنّه يحتاج إلى حنكتكم و براعتكم، فالجلسة بعد ساعة و ليس أمامنا وقت.

نظر العملاق إليّ يتفحّصني كما يتفحّص الجائع دجاجة تشوى، ثمّ قال له، و كأنّه يريد أن ينهي مهمّة فرضت عليه:

- إنكّ دوماً تخرجني، كما تريد يا سيّد كمال.

قادني صديقي الجديد السيّد كمال - فقد عرفت اسمه الآن فقط - إلى صالة الوكالات و قال لي:

- أخرج هويتك.

و بعد عدّة إجراءات وسط الزّحام، قال لي:

- هات أربعة آلاف ليرة بسرعة قبل أن نفقد دورنا.

بُهِتُ و انعقد لساني، حاولت أن أستفهم أو أتردّد، لكنّه تابع متأفّفاً:

- ليس الآن يا أخي، أعطني ثمّ أشرح لك.

تحيرت ماذا أفعل، إنني لا أحمل، بل لا أملك مثل هذا المبلغ.

قلت:

- لا يوجد معي غير ألف ليرة.

ردّ مستغرباً:

- ماذا؟ ألف ليرة؟ لماذا لم تقل هذا من قبل؟

قلت بنزق:

- و هل سألني أحد عن المبلغ الذي أحمله؟

قال:

- حسبنا الله، سأدفع ما ينقصك على أن تردّه مساءً في مكتب الأستاذ.

أخذ مني كل ما أملك من نقود، و أنا مشدوه حائر، لا أقدر على الاعتراض في هذا الموقف المحرج.

فُتحت المحاكم، فانتظم الناس داخلها على المقاعد الخشبية، و كنت من السباقين. جلست أنتظر، و بعد نصف ساعة ضجّت القاعة، فانتصب الجميع قياماً، قمت مقلداً الآخرين، فإذا هيئة المحكمة تدخل من باب جانبي في صدر القاعة بهيبة و رزانة، يجللها السواد، جلس القاضي في الوسط، فبدا فوقه ميزان العدالة تاجاً يهزأ بكلّ تاج، و جلس مساعده و تبعه الجميع، فساد صمت الرّهبة، تقرّست في وجه القاضي، إنها المرّة الأولى التي أرى فيها قاضياً بلحمه و دمه وراء قوس القضاء... يا الله ماذا أرى؟ من أرى؟ إنه الأستاذ قاسم. لا... لا... فالضعف قد دبّ إلى عيوني، بل هو، هو... رفيق الدرب و زميل التّعليم، مع زيادة الانحسار في شعر رأسه، و التّماع خيوط فضية تزيّن فوديه، لكن أين البسمة النّاعمة المتراقصة على شفثيه؟ أين حركاته الرّشيقة السّاخرة؟ أرى الوقار يوشحه، نعم يجب أن يكون القاضي وقوراً مهيباً.

و توهّج الماضي في ذاكرتي، فأعادني إلى الورا عشرين عاماً، يوم عرفت الأستاذ قاسماً معلماً وكيلاً ثمّ زميلاً في إحدى مدارس منطقة الميدان، ألف بيننا طموح متابعة الدّراسة و جانباً من نزوات الشّباب، كان يدرس القانون و يحلم بارتداء ثوب العدالة الأسود و يتصدّر قاعة محكمة الجنايات، يأمر و ينهي، و كنت أدرس الأدب و أحلم أن أكون أديباً أقطف حروفي من الشّمس، فتمت بيننا الصّداقة و تلازمتنا صباحاً و مساءً إلى المدرسة و منها، كان الأستاذ قاسم لطيفاً حاضر النّكتة، لا تفارق البسمة شفثيه، كان ينوء بحمل أولاده الخمسة و أمهم ابنة عمّه الجاهلة الأميّة، التي زوّجوه منها و هو ما يزال يافعاً.

و الله كبرت معك يا أستاذ قاسم، ها قد تحقّق حلمك أخيراً، ليتني درست القانون بدل الأدب، ماذا جنيت من مهنة الأنبياء...؟! تذكرت قول الشّاعر إبراهيم طوقان يردّ فيه على أمير الشعراء:

اقعد فديتك هل يكون مبعجلاً      من كان للنشئ الصّغير خليلاً

هنا التّبجيل يا شاعر القصر.

هل أقوم إليه و أعرفه بنفسى...؟ لا، إنه سيعرفنى عندما يأتى دورى، و ينادى على اسمى، لقد حُلت بإذن الله، لقد حُلت... ما أكرمك يا رب يا مجيب الدّعوة الصّادقة، إنّ قضيتى تحلّق بجناحين، فالمحامى الذى سيدافع عنيّ هو الأستاذ سمعان، و القاضى الذى سيفصل فى قضيتى هو صديقى بل أخى الأستاذ قاسم، ليتنى اعتيت بثنابى لأكون له نداءً فلا يخجل من زمالتى، إنّ له ذوقاً خاصاً فى الثياب، كنت أنا و الأستاذ قاسم نتسابق إلى اكتشاف محالّ البالة فى المدينة، و شراء الفاخر الذى لا يمكن أن يعرف أحد أنّه مستعمل، و لا أنسى يوم جاءنى و الغبطة تملأ نفسه، فسرّ فى أذنى أنّه وجد محلاً لبيع الأحذية المستعملة، و أنّ صاحب المحل وعده ببضاعة ستصل قريباً... فيالفرحة!!...

أخرج القاضى من جيبه نظارة رشيقة لماعة المعدن، و ركزها على عينيه، فزادت من هيئته، تناول الملفّ الأوّل ببطء و تتاقل، فتحه، قلب صفحاته، قرأ فيه قليلاً، ثمّ همس بكلمات لم أسمعها، فإذا صوت الأذن يجلجل فى القاعة (مهئوب المهيوب)، فقام هذا المهيوب قمياً رثّ الهيئة، و تقدّم من القاضى، و بدأ الاستجواب و المناقشات، شردت بخيالى أغوص فى لجة مشكلتى، أقلب وجوهها، و أفزع من توقّع نهايتها، إلى أن انتبهت إلى المهيوب يقول بلهجة قروية ساذجة:

- كيف أترك أرضى. هذه أرضى ورتتها عن أبى... اسألوا أهل الضيعة كلهم يعرفون أنّها لبيت المهيوب...

فقاطعته القاضى:

- كفى... كفى... الأدلة واضحة و المحكمة أصدرت حكمها العادل...

فى هذه اللحظة دخل الأستاذ سمعان بقامته المستقيمة، فهرع إليه المهيوب و قال بلهجة باكية و يدها تشيران إلى كلّ اتجاه:

- يا أستاذ... طارت الأرض يا أستاذ... قلت لى القضية بجانبنا، اعتبرها منتهية...  
فها قد انتهت يا أستاذ.

قرع القاضى بقلمه على المنضدة أمامه، يطلب الهدوء، فاغتمم الأستاذ سمعان ملاحظة القاضى، و أشار إلى موكله أن اسكت، فقال المهيوب بلهجة ساخرة:

- أسكت؟ و حقّي يموت و أرضى تضيع؟

حدّقت في الأستاذ سمعان، لا يبدو عليه أي اهتمام أو انفعال، أين هيبتة و كلمته المسموعة؟ لم أرَ أحداً يهابه و لم يقل كلمة فتُسمع...!  
ازداد صمت القاعة، ازداد عمقاً و رهبة، و المهيبوب كديك ذبيح لا يعرف أين يتّجه، و من يكلم.

كرّر القاضي تنبيهه، و هدّده بحبسه ثلاثة أيّام إذا استمرّ في عرقلته سير المحكمة، صمت المهيبوب و حدّق في خصمه بعينين حراوين جاحظتين تتطقان بل تصرخان ثمّ قال للقاضي و هو يهّم بالخروج من قاعة المحكمة:

- لن يموت حقّي... لن يموت حقّي...  
و هروا خارج القاعة كمن مسّه الجنون.

ترك المهيبوب أثاراً مختلفة في نفوس الحاضرين، انعكست على وجوههم و حركاتهم و تعليقاتهم، توتّرت أعصابي و زادني المشهد انقباضاً و قلقاً، تقدّم المحامون إلى قوس القضاء يلتمسون التعجيل و يجزلون عبارات التبجيل، يبدوونها بـ (( يا قاسم بيك ))، تتالت الدعاوي و كثرالخصام و الجدل، إلى أن نادى المنادي (( نسيم الهاوي )) فتقدّمت من قوس القضاء، و طيف ابتسامة ترف على شفّتي، أحيى بها زميلي القاضي، نظر إليّ بتجهّم و كأنّه لا يعرفني، أو لم يسمع باسمي...؟ فابتسمت له مع إيماة خفيفة برأسي ليتأكد من شخصي، لكنّه فتح الملفّ و بدأ يقرأ و يسأل بلهجة صارمة، و أنا ساهم لا أصدّق نكرانه لصدّاقتي، ثمّ علّلت ذلك بأنّه لا يستطيع أن يرحّب بي داخل القاعة حفاظاً على سمعة المحكمة و نزاهتها، و قد أجل التّرحيب إلى وقت أوسع، و إن كان قد خامرني شكٌّ في تناسيه للصدّاقة بعد أن نال لقب (( بيك ))..

صوت أقدام مسرعة، ثمّ دوت رصاصة، تبعثها أربع رصاصات، أخرست الجميع، و قلبت القاعة إلى ساحة سيرك، لم أدر ماذا أفعل، ألقيت بنفسي تحت منضدة بجانب، أهرب من الموت، التفت لأرى المهيبوب و قد انقلبت هيئته إلى شيطان عجوز، و بيده مسدّس يفرغه في صدر خصمه الذي كان ينهي إجراءات قضيتّه.

تدافع النّاس إلى الخارج يتواثبون و يدوس بعضهم بعضاً، و علا الهرج و الصّياح، خرجت مذعوراً طالباً النّجاة أسأل نفسي بخوف: تراني هل سأحلّ قضيتّي كما حلّ المهيبوب قضيتّه!؟؟



## رحلة سعيدة

التفت إليّ معاون (الميكرو باص) و قال لي:

- ارجع إلى الورا... المقاعد الأمامية للحريم...

نهضتُ أنا و أكياسُ الخضرة و أعوامي الستون، نتمايلُ و نتأرجحُ، جلستُ في

المقعد الأخير، أقعدَ مكاني في الكرسيّ الأوّل فتاتين، فكاد أن يلتصق بهما...

انطلقتُ مركبةُ (الميكرو باص الفضائية) من جديد، تعبُرُ ممزاتِ الشوارع

والمنعطفات الضيقة والعريضة، تتلوّى بين السيّارات كأفعى مذعورة. لم يكن السائقُ

ينظرُ إلى إشارات المرور، فهذه كما قال عندما كان يجتاز إحدى الإشارات الحمراء:

"هذه للجبناء".

أعادتني سرعة (الميكرو باص) إلى سنّ الطفولة، عندما كنّا نرى في السينما رجالَ

العصابات في الأفلام الأمريكيّة، يطارد بعضهم بعضاً بسيّاراتهم بسرعات خياليّة،

وهم يطلقون الرصاص على بعضهم بعضاً، فنتحمّس ونصفق ومنتشي سروراً، أليست

السرعة إحساساً طفولياً بالانعتاق من الجاذبيّة الأرضية؛ وحلمَ الإنسان البدائيّ

بالطيران!؟

فجأة أطلق السائق ضحكة مُففّعة، ملأت فضاء (الميكرو باص)، ثقتُ أسمعنا،

و تطايرت من التوافذ إلى العالم الخارجيّ، ثم قال للمعاون:

- أبو دُحو... مرسيدس حديث، خاف وهرب إلى اليمين... جبان، لكُ أنا أبو

الفوارس خيال الزرقا...

أجابه المعاون تهزّه نشوة النصر:

- يا عيني عليك يا بطل... بعدك ما حدا يسوق سيّارة... ثمّ صاح على مهلك...

هاته...

توقّف (الميكرو باص) فجأة، فانكبّ الرّكاب إلى الأمام، و كاد رأسي أن يرتطم

بعمود المقعد الذي أمامي...

صعد رجل مسنّ متمهلاً، نادى السائق:

- يا حاج ساعة حتى تطلع!؟

وقبل أن يغلق المعاون الباب، أقلعت (المركبة الفضائية) من جديد فوق المسكين على المقعد وأخذ يصلح من وضعه، وعبارات الاحتجاج تنتال من فمه، دون أن يصغي إليه أحد، و أخيراً قال له المعاون:

- خلصنا هل هي وقعة من فوق الجمل!!؟

كان وجه السائق يكاد أن يلامس زجاج السيّارة الأمامي، و عيناه الزنّبقيّتان تدوران في كلّ اتجاه...

مال (الميكرو باص) بنا إلى اليمين ثمّ إلى اليسار بحركة لولبيّة خاطفة، مال الرّكاب مع حركته، وانطلقت ألسنتهم تستغيث "يا لطيف، يا ستار...".

مدّ السائق رأسه من النافذة بجانبه، يلوّح بيده، ويكيل الشتائم لسائق سيارة أجرة صغيرة، شتائم لم أسمع بها، رغم أنّي إنسان شعبيّ، أتردد على (باب جنين) و (سوق العتمة)، وأقصد كلّ أسبوع (سوق الجمعة). كانت السيّارة ما تزال في انطلاقها الرائدة... فصاح المعاون:

- راكب، هاته.

نظر السائق إلى الرّجل على الرصيف، قطع سيل الشتائم وقال:

- اتركه، هذا خلفيته كبيرة، سيؤخّرنا...

أشعل معاون المركبة الفضائية سيجارة، وأخذ يعبّ منها متمهلاً، ثمّ ينفث دخانها الكثيف داخل السيّارة، قال للسائق:

- أبو الفوارس شغل المسجّلة حتى نملي راسنا.

انطلق صوت المسجّلة يعلن: "الآن مع صوت أمير الطّرب (دحّام البعيجاني)، يرافقه ملك الربابة (سطّام الكرط) وأغنية:

وطبيب للوجعان

سمرا ورُفيعه

من خدّها الدّبلان"

وبوسة رُفيعه

غرز المعاون عينه في صدر إحدى الفتاتين اللتين أجلسهما مكاني، يعبّ من دخان سيجارته، و يهزّ رأسه طرباً، ويتمايل مع الأنغام الحزينة، وخياله يسبح في عالمه الغامض المتوهج، فتدلّت شفته السفلى، وسال لعابه من بين أسنانه الصّدئة...

صاح ولد في مؤخرة (الميكرو باص):

- عمّو نزلني عندك...

في هذا الوقت تجاوزنا (ميكرو باص) آخر من على يمين سيّارتنا، صاح السائق بمعاونه مذعوراً:

- ابو دحّو... الأرنب سبقنا.

فوقعت الصّاعقة على رأس المعاون و صاح صيحة الملسوع:

- خسئ... هاته أبو الفوارس هاته...

اضطرم الغضب في رأس السائق، فلم يعد يرى أو يسمع، انحنى بصدرة إلى الأمام و رفع مؤخرته - كما يفعل القطّ (توم) عندما يستعدّ للانقضاض على الفأر (جيري) في أفلام الصّور المتحرّكة للأطفال - يجتاز المجزّات... مدّ المعاون رأسه من النّافذة بجانبه يشارك في المعركة، ويوجّج نارها، ويكيل الشّتائم المهذّبة للأرنب الذي سبقنا بأشواط، فيضيع صوته ورذاذ لعابه في الهواء، قال الولد بصوت ضعيف:

- عمّو صار بيتنا بعيد نزلني...

لكن من يسمع و من يجيب؟! الحرب ضروس، ورحى المعركة دائرة... صاح الولد و قد انخرط في البكاء:

- عمّو أنا ما بعرف أرجع وحدي، نزلني الله يوفّقك.

أزره بعض الرّكاب، وتعالّت الأصوات من هنا و من هناك، تطلب من السائق أن يتوقّف، كان ظهر السائق و خلفيته هما الجواب فهو يمتطي متن الرّياح، ليعيد الكرامة المطعونّة.

أدخل المعاون رأسه من النّافذة، وصرخ محتقن الوجه:

- يا ابن الحرام من قال لك اركب معنا؟! أهذا وقتك?!

اشترك الجميع في الاحتجاج وتعالّت الأصوات، فأذعن السائق للمظاهرة الكلاميّة، أوقف السيّارة و صاح على الولد:

- انزل إن شاء الله نزلتك الأخيرة، من أجلك تركنا الأرنب يضيع من أيدينا...

هدأت النفوس قليلاً، وأشعل السائق أيضاً سيجارة، وأخذ يعبّ أنفاساً حاقدة.

تهادى (الميكرو باص) يستأنف السير من جديد على إيقاع الهزيمة وصوتٍ (دحّام البعيجاني) الذي ينوح لوعة من هجر سمرائه الرفيعة، وكأنّه الموسيقى التصويريّة للموقف الحزين.

سيطر الوجوم على الجميع، صاح المعاون بصوت جريح:  
- حرمتان هاتهن.

وقف (الميكرو باص)... سيّدتان في منتصف العمر أميل إلى البدانة، لا يوجد مقعد لراكبين، إلّا مقعدي، قال لي المعاون:  
- تعال إلى جانب السائق.  
أجبتة:

- يا أخي معي أغراض، ولا أستطيع أن أنتقل مثل القطّة وأولادها من هنا إلى هناك.

اشتعلت الثّورة من جديد بأشدّ ممّا كانت، صاح المعاون:

- ولكّ.. هذي سيّارة أبوك؟ لازم تقعد في المحل الذي نريده.  
رحت أحتمي بسنواتي السّتين، علّها تشفع لي، قلت له:  
- لا، لن أغير مكاني.

لكنّها كانت غضبة مضرّية، هتكت كل حجاب، فأخرج السائق من تحت مقعده عصاً غليظة، وامتشق المعاون من جوربه مشرطاً لمّاع الشّفرة، وقفزا من السيّارة ذئبين غاضبين، يتطاير الشرر من عيونهما، والسباب من فميهما، ووقفنا في وضعيّة الهجوم، قال لي السائق:

- انزل يا ابن الذين...

قاتل الله الروماتيزم وآلام العمود الفقريّ، وعلى رأسها أعوامي السّتين، لقد ولّى زمن الصّبا... زمن المصاولة و المجاورة، لم أجد حلّاً إلّا أن أنسحب من المعركة...  
نزلت متحاشياً الاصطدام بهما، ويبدو أنّهما أرادا إنهاء الجولة عند هذا الحدّ، فقد شعرا بأنّ انسحابي قد مسح شيئاً من عار التقهقر وراء الأرنب، صعدا السيّارة التي انطلقت بسرعة، وأكياس الخضرة والشّتائم تتناثر من النوافذ.

## ضريح الشيخ صالح

انتصف أيار، وبدأ الصيف يخلع على القرى غلالته الذهبية، والمدارس تستعد للامتحان الأخير، وكان من عادة المعلمين أن يتزاوروا في القرى المتناثرة حول المدن.

وصلت قرية الشيخ صالح بُعيد العصر، فهي لا تبعد أكثر من مسير نصف ساعة عن القرية التي أعلم فيها، أزور المعلم (محموداً) صديق الدراسة القديم، وأقتل الوحدة في غرفتي المنفردة على جانب مقبرة القرية، فقد كنت معلماً وحيداً في مدرستي، أعلم ستة صفوف معاً، كما كان صديقي محمود معلماً وحيداً في مدرسته أيضاً.

استقبلني الفلاحون بالود والبشر قبل أن أرى المعلم محموداً، ثم قمنا جميعاً بنزهة وسط بحر من سنابل القمح المتماوجة، التي تهز قاماتها الحبلى الواعدة بمواسم الخير، كانت سياحة فريدة، فكل جمال ميزته ومتعته، ولم يكن يخطر ببالي أن الإصغاء إلى همس السنابل له هذه النشوة الساحرة.

عند عودتنا أصرَّ المختار على زيارة مضافته، وتناول العشاء عنده إكراماً لي، لفت نظري تَلُّ صغير وسط البيوت الطينية لا يرتفع عن الأرض أكثر من ثلاثة

أمتار، تغطيه الحجارة التي يقارب حجمها حجم كف الإنسان، عجبت للأمر، فطبيعة الأرض في هذه المنطقة غضارية، تندر فيها الحجارة، سألت المختار:

- ما هذا التل الحجري؟!!

التفت إليّ وقد اكتسى وجهه خشوعاً ورسانة وقال:

- هذا قبر الشيخ صالح قدّس الله سرّه.

تابعت مستفسراً

- ومن هو الشيخ صالح؟

رد بشيء من العتاب:

- سامحك الله يا أستاذ، وهل يوجد في الدنيا من لا يعرف الشيخ صالح قدّس الله

سرّه، هذا ولي من أولياء الله الصالحين، له كرامات وأسرار عظيمة.

- وكيف عرفت أنه ولي وله كرامات وأسرار؟

رد متحمساً :

- له سر عجيب يا أستاذ.

- وما هو؟

رد باهتمام:

- إذا رفع أحد حجراً من فوق قبره، فإنه حتماً سيصاب بأذى أو مكروه.

قلت متعجباً :

- ومن أين يأتي هذا الأذى أو المكروه؟!!

قال بلهجة الواثق:

- طبعاً من الشيخ صالح قدّس الله سرّه.

- ولماذا يحمل هذا الشيخ الجليل بين دفتي صدره هذا الحقد الأسود على بني

البشر؟!!

ضرب كفاً بكف - على عادة أهل هذه القرية- وقال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، استغفر الله يا أستاذ، واطلب من الشيخ السماح.

وهنا انتبه الجميع إلى الحوار وأخذوا يؤيدون المختار على موقفه وآرائه.

قلت :

- ألم تسمعوا قوله تعالى "إنك ميت وإنهم ميتون" يا جماعة هذا كلام الله يخاطب به نبيه، وسوف أثبت لكم صحة أقوالي.

كنت في ميعة الشباب متحمساً مندفعاً، فتقدمت من تل الحجارة وبدأت أقذف بالحجارة بعيداً، انتاب الجميع وجل وغضب، وكادوا أن يوقعوا بي، لولا احترامهم لضيف هو أستاذ وصديق لمعلم قرينتهم، هرع بعض الفلاحين يعيدون الحجارة إلى أماكنها، ويستغفرون الله على هذا الجحود بحق الأولياء والصالحين ويطلبون من الشيخ صالح الصفح والغفران، ففاعل هذه الفعلة النكراء جاهل بمقامه وكراماته.

أخرجني الموقف كما أخرج زميلي المعلم محمود، سرنا صامتين، ورغم ما حدث فقد أصرَّ المختار على تناول العشاء عنده، دخلنا مضافته نستريح، فأقسم المختار ألا أجلس إلا في صدر المجلس لباقة منه ليشرعني بأهميتي، وأنهم نسوا قضية الشيخ صالح وحجارتهم، افترشنا البُسُط ننتكئ على وسائد وثيرة وزميلي المعلم محمود إلى جانبي، في حين بدأت نساء المختار الأربع يتسابقن إلى إعداد مائدة من منتجات القرية، البيض واللبن الخاثر والزبدة مع السكر ودبس العنب مع السمن العربي.

لم أدر لماذا لم يبدؤوا بالطعام، انتظرنا وانتظرنا، أخيراً أقبل إمام المسجد برج بشري بوجه متورد تلمع فوقه حبات العرق وأنفاس حاره يسابق بعضها بعضاً، قام الجميع احتراماً له، قمت مع القائمين فإذا به يخطو إلى صدر المجلس ويقعد في مكاني، فجلست أنا والمعلم محمود إلى جانبيه في المرتبة الثانية، فبعث صامتاً فقد نسني الجميع واهتموا بالشيخ، ثم أقبلنا على الطعام وهم يحيطونه بعبارات الترحيب والتبجيل ويخصونه بلذيق الطعام، فشمّر عن ساعديه وشرع يأكل بشغف ويمارح الخاصة منهم، ولحيته الكثة الطويلة تتأرجح مع حركة فكه صاعدة هابطة.

التفت المختار إلى الرجل الذي يجلس بجانبه وقال:

- كل جيداً يا أبو صطوف، أمامك الزيجة الثالثة.

ضحك أبو صطوف ولم يعلق على كلام المختار، أضاف أحدهم:

- أكل الرجال على قدر أفعالها.

قهقه بعضهم ثم جاء تعليق الشيخ بقم مملوء بالطعام

- أبو صطوف لها.. زوجوه عشر نسوان وأناكفيئُهُ بأن يرضي العشرة.  
ضحك الجميع وسرَّ أبو صطوف لهذا الإطراء العلني، فقريب زوجته القادمة  
بين الحاضرين، قال المختار:

- السنة سنة خير، وأبو صطوف سيفرحنا بعرسه وخرافه على الفريكة.  
كان صوت ابن المختار يأتينا من غرفة مجاورة وهو يردد مطلع قصيدة أمير  
الحكمة المتنبي محاولاً حفظها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم      وتأتي على قدر الكرام المكارم  
التقت فلاح بجانبي إلى جاره وهمس في أذنه  
- أبو صطوف يريد أن يتزوج ويترك ثأره، مرت سنتان على قتل ابن عمه ولا  
أحد تحرك حتى الآن.

رد عليه الآخر متأسفاً:  
- ماتت النخوة في رؤوس الرجال، أنا ماانتظرت سنة إلا وكومت حسن الخلف  
قدام الجميع وعلى البيدر.

-عيب عليه جاءته سنة خير فقام يتزوج!! كان عليه أن يستغل هذا الموسم  
ويمسح العار عن بيت النايف.  
سأل أحد الحاضرين بغم أورد خال من الأسنان، وكأنه كان يعالج كلام الشيخ  
في دماغه.

-هل يجوز ياشيخ حمدان أن يتزوج الرجل عشر نسوان!؟

تابع الشيخ مضغ لقمة كبيرة ثم قال:

-عشر نسوان في الجنة ياغشيم..

قال زميلي محمود:

-قيل للرجل سبعون حورية ياشيخ حمدان!

ضحك الشيخ وقال:

-وأكثر من سبعين هل سررت؟

تابع المعلم محمود يريد أن يستدرج الشيخ

-وهل يقدر الرجل على سبعين حورية!؟



- الجاهل يبقى جاهلاً يأسئاذ في الجنة يعطى المؤمن قوة على حسب عمله  
في الدنيا فبعضهم يعطى قوة عشرة رجال، وبعضهم يعطى قوة مئة رجل وبعضهم  
قوة ألف رجل.

ثم خفض صوته وأحنى جسده وكأنه يبوح بسر خطير وتابع:  
- خذوا هذه أيضاً... أي حورية تراها طائرة أمامك، بإشارة من يدك تكون قد  
صارت في سريرك وطوع أمرك.  
- وهل تطير الحورية ياشيخى!؟

ضحك الشيخ وقال:

- في الجنة الصيد بري بحري جوي..  
- وزوجة الرجل أين تكون؟  
- ستكون زوجتك في نظرك أجمل من كل النساء وأجمل من كل الحوريات.  
علق أحدهم ساخرأً :  
- زوجتي أم سعدون ستصبح أجمل النساء!؟ والله لأصدق... هذه تحتاج إلى  
عشر معجزات..

قال أحد الحاضرين:

- لكن أبو عيسى في خلاف دائم مع زوجته، ويمكن أن يطلقها...  
- في الجنة سيعودان سمنة على عسل، هل أنت أكرم من ربك يارجل!؟...  
سأل المعلم محمود:

- أصحيح أن جسم الحورية شفاف يرى الناظر ما بداخلها؟  
هزّ الشيخ رأسه أسفاً على هذا الجهل المطبق وقال:

- ليس الجسم شفافاً بل هو جسم بلوري، يرى الناظر ما وراءه وليس ما بداخله  
فقط.

تابع الشيخ:

- ياجماعة عين الحورية أكبر من باب انطاكية... بزّها أنهض من التل  
الغربي... ردفها أعلى من جبل الأربعين..

فانطلقت الأفواه بالتكبير والتسبيح والشكر :

- الله أكبر ...

- يا الله ما أكرمك ..

- يارب عرش حوريات بس... لأأريد سبعين.

أثناء هذا الحوار الدسم الشهوي، اقتحم شاب صغير المضافة مبهور الأنفاس ليعلم أن رئيس المخفر قادم، انتفض الجميع قياماً على أرجلهم، يبلعون بسرعة ما في أفواههم، وكأنهم سمعوا بأن زلزالاً سيضرب المكان، فوقفوا مقلداً الآخرين كيلاً أخرجهم مرة ثانية كما أخرجتهم عند الشيخ صالح، أسرع المختار إلى الفانوس الوحيد الذي يضيء الغرفة، وقوى شعلته إلى أعلى درجة.

دخل رئيس المخفر قصيراً قمياً وكان برتبة مساعد يتبعه شرطيان - يخبط بحذائه العسكري دون أن يخلعه عند الباب كما هو العرف في القرى، يسير بخطوات واسعة نزقة، ويرشق الجميع بنظرات نارية استعارها من شرر جهنم، وبيمينه عصاً من الخيزران يضرب بها كفه اليسرى، وصل إلى صدر المجلس وخلفه الشرطيان وظلوا واقفين، فتراجع الشيخ عن مركزه إلى المرتبة الثانية، وتراجعنا أنا والمعلم محمود إلى المرتبة الثالثة.

طلب المختار من رئيس المخفر بأدب مشوب بالخوف أن يتفضل بالجلوس ويهدئ من سورة غضبه، لكنه لم يعر انتباهاً للمختار بل أخذ ينقل عينيه بين الجميع ثم قال موجهاً كلامه إلى المختار دون أن ينظر إليه وهو يهز رأسه هزات خفيفة:

- ابن أخوك عبدالرحمن الراشد يدخل القرية وينام فيها مع زوجته ثم يخرج في

اليوم التالي.. صحيح هذا الكلام يا مختارنا العزيز!؟

قال المختار شبه منهار:

- معاذ الله ياسيدي، والله أكسر رجله إن داس أرض الضيعة.

عند ذلك التفت رئيس المخفر إلى المختار ورشقه بسهام نارية من عينه اليسرى في حين سافرت عينه اليمنى لتستقر سهامها في وجهي، فقد كان أحول حوله وحشيٌّ جذاب، وقال:

- كذاب وذاك.. وصلتني أخبار موثوقة بأنه يأتي إلى الضيعة كل يومين ثلاثة.

- لا والله ياسيدي من المرة الماضية التي شرفتمونا بها وعيني ماغفلت عنه.  
استرح ياسيدي استرح، والله لا يخالف أحد أوامركم.  
- والله إن وقع في يدي لأسلخ جلده عن لحمه، يسب جاره أبو أحمد ونسكت  
على ذلك!!.. أنا وراه والزمن طويل..

ثم التفت إلى الشيخ وقال له:

- أيجوز هذا العمل في شرع الله ياشيخ حمدان!؟

فتمتم الشيخ بكلمات غير مفهومة.

جلس رئيس المخفر وجلس الشرطيان على يمينه ويساره، فجلس الجميع بعده  
استند بمرفقيه إلى الوسادة خلفه ومد ساقيه القصيرتين ملوحاً بحذائه العسكري الذي  
لم يخلعه، فأصبح أسفله يواجه كل الحاضرين.

نظر إلينا أنا والمعلم محمود نظرة توحى برغبته في انصرافنا، لكن الفضول  
دفعنا إلى البقاء..

اقترب المختار من رئيس المخفر وقال بأدب ورجاء:

- سيدي إذا كان عند حضرتكم وقت طويل لنذبح خروفاً؟

جال رئيس المخفر بنظراته النارية في الصحون أمامه ثم قال بتأفف:

- لا لا ... ما عندنا وقت، لازم نزور ضيعة الجريانة بعدكم..

رد المختار:

- إذن نجدد الصحون.

لم يجب على الجملة الأخيرة، فكان ذلك علامة الرضا، فانطلق الجميع في  
إعداد المائدة من جديد قبل أن نفرغ نحن من طعامنا، عمرت الصحون، وغصت  
بأنواع جديدة من الطعام، فقد أحضر كل واحد من الحاضرين من بيته ما يليق  
بالضيف الخطير.

خلع رئيس المخفر قبعته فظهرت صلعته المستطيلة المسطحة لماعة، تشوه  
صفحتها بعض البثور والحفر الصغيرة من أثر مرض القرع في طفولته على ما يبدو،  
وانكبَّ مع مرافقيه يزردون اللحم الكبيرة بأشداق كأشداق التماسيح، استمرت الجولة

ربع ساعة، ثم تجشأً رئيس المخفر، وأخذ يلحق أصابعه العشرة التي بدت لماعة من الدهون التي تسيل منها، وتراجع إلى الوراء.

قدّم له المختار علبة سجائر معدنية، فلفَّ سيجارة وأشعلها ودسَّ العلبة في جيبه، وأخذ يمصّ الدخان بتمهل، وأصابعه تنظف معلق بين أسنانه من طعام، وكذلك فعل الشرطيان، لم يجرؤ أحد على فعل شيء، فالجميع كانوا صامتين بعد ربع ساعة بدأت الجولة الثانية من الطعام، فقد عاد رجال الأمن الثلاثة إلى تكوير كراة الخبز المحشوة بالإدام وإلقائها في الأجواف الشبقة التي تقول هل من مزيد.

تتابعت جولات الأكل والتدخين، واستمر ذلك أكثر من ساعة، ثم رفعت المائدة وامتلأت كؤوس الشاي، وتتابع لف السجائر وإشعالها وإطفاء الأعقاب نهض رجال الشرطة وأمامهم الرئيس يرغي ويزيد غضباً على الجميع فنهض كل الحاضرين، ركض المختار هامساً في أذن الرئيس.

- سيدي الدجاج والبيض والسمن كلها صارت في السيارة.

كان وجه رئيس المخفر مايزال كالسيف حدة وكجهنم غضباً، لايهش ولا يلين ودّعه الجميع إلى السيارة وعادوا.

قال المختار:

- لا تنتظروا إلى وجهه، قلب أبيض مثل الحليب.

عقب أحد الحاضرين:

- الحق معه وإلا فلنت الأمور.

قال الشيخ بعد أن بسمل وحمدل ومسح على لحيته الكثة:

- قال تعالى في كتابه العزيز "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم". كانوا يعلقون ويبدون آراءهم وعيونهم تلتحظ رجلاً في مؤخرة الجميع قرب الباب ينظاها بالبلاهة واللامبالاة، لكنك تقرأ في وجهه سورة عبس، وترى عليه أثر الغبرة.

قال المختار محاولاً الهرب من موقفه أمام رجال الشرطة:

- أسمعنا الأخبار يا قاسم:

عرك رجل أذن المذباغ وحرك إبرته، فارتفع بعد قليل صوت يقول:

قامت الطائرات الإسرائيلية بعدة غارات على مواقع على الضفة الغربية لقناة السويس وردّت المدفعية المصرية برشقات كثيفة على مواقع العدو، هذا والصهاينة يكتفون غاراتهم مع اقتراب الذكرى الأولى لهزيمة العرب في حزيران.

ضرب أحد الحاضرين بكفه على فخذة فرنّ الصوت عالياً وقال:

- هزيمة... لا والله... لانقبل بالهزيمة، سنة يا جماعة.. سنة مرّت أنقل من الجبل على صدر النبي آدم من غير أن نأخذ بثأرنا.

- والله كلما تذكرت هزيمتنا أمام هؤلاء الأندال أحسّ النار اشتعلت في رأسي.

- يقولون حرب الانتقام قريبة والعرب كلهم يستعدون.

- آه... لولا الخيانة.

- لاخيانة ولا هم يحزنون..! لسلاح والطائرات يا جماعة.

- يا أخي أمريكا.

- أمريكا وكل الكفار ساعدوا اليهود.

قال الشيخ بوقار:

- كله بأمره، ابتعدنا عن ديننا، فابتعدت السماء عنا.

- إيه والله

أردف الشيخ متشجعاً:

- إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

- نفوسنا مريضة يا جماعة.

- يا جماعة في المدينة النسوان كاسيات عاريات.

- هذه آخر الدنيا.

- في المدينة لاتعرف الشاب من البنت.

- افتح المصحف على أي صفحة واقلب سبع ورقات ثم عد سبعة أسطر ثم

سبع كلمات وهناك ستجد الجواب على كل ماحدث.

- أصحيح هذا الكلام ياشيخ حمدان؟

رد الشيخ بخشوع

- الله... الله أكبر من الجميع ... الله أكبر من كل شيء.

بدأت أحس بالألم خفيف في معدتي، تجلّدت فالسهرة في أولها، تابع أحدهم

- يا شباب الأمر يحتاج إلى عزيمة وصبر.

- في العام الماضي عندما طلب منا المخفر حفر خندق حول القرية، خلال

يوم واحد حفرنا ما هو مطلوب وزيادة.

التفت المختار إلى أحدهم وقال مبتسماً :

- عندما طلبوا منا الحراسة ليلاً خوفاً من إنزال يهودي أمسك صطوف الزين

بذيل بقرته وأخذ يصيح دبابه.. دبابة مسكت دبابة.. يا أهل الضيعة مسكت دبابة.

ضحك الجميع، فضرب صطوف الزين يده على ركبته وقال:

- كلما يأتي ذكر الحرب تعيدون هذه القصة، والله يا جماعة أنا مارأيت دبابة

في حياتي، أسمع بها فقط، فكيف لي أن أفرق بين الدبابة والبقرة حسبت أن للدبابة

ذيلاً وأن اليهود نزلوا دبابات من السما كما خبرونا.

ازداد الألم في معدتي وأحسست أنني بحاجة إلى التقيؤ، تماسكت قليلاً، ورحت

أبحث عن سبب لهذا الألم، لا بد أنه من الزبدة التي أكلتها مع السكر لقد كان لها

طعم حامض، ربما تكون فاسدة، انطلقت إلى خارج مضافة المختار فجأة لأفرغ مافي

معدتي من طعام.

عدت إلى المضافة مع الألم الحاد الذي يمزق جوفي فإذا بالعيون تتغامز وإذا

المختار يقول:

- يا أستاذ هذا كله من غضب الشيخ صالح قدّس الله سره عليك، اليوم أنت

انتهكت حرمة، وهاهو الآن يرد على إهانتك له.

صديق الجميع على رأي المختار معلقين:

- الشيخ صالح قدّس الله سره له سر عظيم.

- يا أخي الشيخ صالح قدس الله سره لا يؤذي إلا إذا اعتدى أحد على ضريحه.

- أسألوني أنا مرة من المرات...

كان علي أن أشرح لهم سبب المرض، وأن معدتي حساسة تتأثر سريعاً بأي عارض لكنني خشيت أن يكون ذلك إخراجاً للمختار، بأنه يقدم لضيوفه طعاماً فاسداً. نوبة جديدة من الإقياء دفعتني ثانية إلى الخارج فانطلقت سهماً لأفرغ هذه المرة مافي جوفي وأمعائي معاً فقد أصبت بإسهال شديد. عندما عدت إلى المضافة قال لي الشيخ حمدان بعد أن عرف قصة رفع الحجارة من فوق القبر.

- لا بد من الذهاب إلى ضريح الشيخ صالح قدس الله سره.  
وأعقب ذلك صرخة حادة ورجفة وهو يقول "حي".  
قلت:

- ولماذا نذهب إلى ضريحه.  
قال الشيخ حمدان متعجباً :

- ألا تعرف لماذا؟ الإنسان عندما يسيء إلى الآخر، أليس من الواجب والأدب أن يعتذر إليه ويطلب منه السماح؟!  
قال أحد الحاضرين:

- ألا يجوز طلب العفو من هنا؟  
فرد الشيخ محتدماً :

- أتريد أن يغضب الشيخ صالح قدس الله سره مرة ثانية؟ هيا قوموا جميعكم.  
قام الجميع وقمت معهم فقد شلّ الألم تفكيري، سرنا بين بيوت القرية الطينية النائمة منذ الغروب، يتقدمنا فانوس المختار، وتلاحقنا غمامة من الغبار الذي تثيره أحذيتنا على دروب القرية الترابية المتعرجة، فتعلو هذه الغمامة متراقصة تحت نور الفانوس، سرنا وسط تعليقات بأن الشيخ صالح قد يقبل الاعتذار وقد لا يقبله وهذا يتوقف على النية.

تحلق الجميع حول القبر وبدأ الشيخ حمدان بعبارات رصينة وبجد وخشوع يخاطب الشيخ صالح ويطلب من مقامه الجليل العفو عن رجل يجهل منازل الأولياء كرر ذلك وألحّ بدموع سخية بللت لحيته، ثم بدأ بقراءة أناشيد دينية وختمها بمولد نبوي، ثم انصرفنا وهو يطلب برجاء حار القبول والسماح.

ذهبت مع زميلي محمود إلى غرفته، أعتد على ذراعته، بعد أن أفقدني  
الاسهال قوتي وتوازني، لم أشعر بالراحة إلا بعد أن أفرغت تماماً مافي أحشائي من  
سموم.

نام زميلي محمود لكن النوم لم يهادنني، فأخذت أتسلى بالمذياع، أنقل إبرته  
بين المحطات، فتهدى صوت سيدة الغناء العربي من إحدى المحطات القريبة  
الواضحة يصدح:

العيب فيكم يافي حبايبكم

أما الحب يا عيني عليه ياروحي عليه

بعد أن أنهت أم كلثوم المقطع دوى تصفيق طويل، وزعق صوت شبه مخمور  
"عظمة ياست".

حرّكت إبرة المذياع فإذا بخبر يأتي من محطة بعيدة.

"قامت مجموعة من الفدائيين الأبطال بمهاجمة أحد مواقع العدو داخل الأرض  
المحتلة، سقط منهم شهيدان، وعاد الباقون إلى قواعدهم سالمين".



## فن التجارة

ارتقى الحاج علي درجات القبو الحجرية المتآكلة مشيعاً بدعوات زوجته الحازة...  
( ( الله لا يخجلك )) ... ( ( الله يفتحها في وجهك )) ... إن شاء الله تمسك التراب  
فينقلب ذهباً.

وصل أرض الشارع، ففتح صدره لنسمات الصّباح، يعب الهواء البارد، ليطرر رائحة  
العفن المستوطنة في أنفه و رئتيه، أحسّ بنشاط طارئ، و أنّه عاد إلى الورااء أربعين  
عاماً، عاد شاباً يعصر الحديد، يوم قلب حجر الرّحى المستند إلى جدار الطّاحون  
أمام كلّ شباب الحيّ، في حين عجز أيّ منهم عن تحريكه، فسار بقامته الفارعة  
مزهواً يناطح الغيوم.

كان الحاج علي يعمل حجّاراً، ينحت الحجارة الضّخمة، كان معروفاً بقوّته  
و مهارته، يقبّل الحجر بين يديه كوسادة من الإسفنج، إلى أن كان ذلك الحادث  
الأليم الذي أقعده عن العمل، و لوى ساقه، فقد حطّمها حجر كبير سقط فوقها،  
فصرف كلّ ما ادّخر لإصلاحها، لكنّها لم تعدّ قويّة شابّة كما كانت، أصبح يميل في  
مشيته، و يتوكأ على عصا، ثمّ هجر العصا محتملاً الألم، لأنّها تتال من رجولته، و  
وجد نفسه هملاً، لا حاجة لأحد به، فأشفق عليه تجار البناء، و أكلوا إليه حراسة  
البنائيات التي تبنى حديثاً بأجر لا يعادل ربع ما كان يأخذه أيام العزّ  
و الفتوة، يأتي مع الغروب، و يغادر مع شروق الشّمس إلى قبوه الرّطب، خفاشاً لا  
يخرج إلاّ في الظّلام.

أحسّ الحاج علي بثقل الصّرة الكبيرة في يده، فنقلها إلى اليد الأخرى، و بعد خطوات  
وضعها على الرّصيف و وقف يستريح قليلاً، قاتل الله الشّيخوخة، كان باستطاعته  
أن يحمل هذه الصّرة بأسنانه، و يدور بها الأرض، و الآن يعجز عن حملها بضعة  
أمتار، إنّها فكرة زوجته الحاجّة فهيمة، منذ أن جمعها سقف واحد  
و آراؤها السديدة ترسم له ما يجب أن يفعل، و ما لا يفعل، كانت طيبة العشرة سقته  
كؤوس السّعادة، لكنّها كانت محرومة الثّمار، فلم يرزق منها أولاداً، فعاش معها قانعاً  
راضياً، قالت له:

- لماذا لا تعمل في النهار، فتبيع أدوات التسلية و ألعاب الأطفال؛ كما يفعل جارنا أبو خالد...؟! إنه يعمل ليلاً في معمل البلاستيك و نهاراً يطوف المدينة بعربته، يبيع الحلوى و الألعاب للأطفال، إنه يربح أكثر من عمله الليلي.

أجابها برقة مبطنّة بسخرية مُرّة:

- و من أين لنا رأس المال؟!

إنّها لا تعدم الحيلة، و لا تعجز عن تدبير الأمور، قالت:

- طبق الغسيل النحاسي و القدور و الصّحون النحاسيّة، لم يعد لنا بها حاجة، فأواني الألمنيوم عوّضتنا عنها و عن كلفة تبييضها كلّ عام، و التي تعادل ثمن الألمنيوم، لقد مضى عهد النّحاس يا حاج علي... خذها و بعها...

عندما قبض ثمن أوانيهِ القديمة الصّفراء اللامعة كالشمس شعر بفقد صديق عزيز... شعر بفراغ في وجدانه... لكنّها الليرات التي ستجلب الليرات... صعد الباص مع الحشد المتسلّق بصرّته الكبيرة.

- هذا باص و ليس شاحنة.

- انتظر حتّى يصعد الذي أمامك.

- لماذا تدفعني؟!

- يا أخي اتركوا الحريم تصعد أولاً.

- متى نتعلّم النظام؟!

- رجلي يا سيّد، هذه رجل و ليست مسنداً.

- ارفع إيدك يا ابن الكلب.

- من الذي مدّ يده؟ عيب على شرفكم...

انحشر الحاج علي مع صرّته الضّخمة داخل الباص، و الغبطة التي تملأ نفسه صمّت أذنيه عن سماع تعليقات الآخرين، إنّها المغامرة الجديدة في حياته، سيؤمن دخلاً إضافياً، يرفه به عن زوجته الصّابرة المسجونة بين جدران القبو التي ترشح مياه المجاري الخضراء، سيشتري سجّادة جديدة للصلاة، و مذياعاً صغيراً لسماع القرآن صباحاً، و هذه الكرات العقيقيّة المتقلّبة على نار هادئة، يرمقها من وراء زجاج الآلة الجديدة في دكان جاره، بيضاء متدلّية الرّقاب عند الصّباح ثمّ تتحوّل رويداً

رويداً قرمزية شهية يسيل لها لعابه، تنفذ رائحتها المثيرة إلى خياشيمه، دون أن يتجرأ على السؤال عن ثمنها، سيخترق هذا العالم الغامض و سيشتري فروجة يُفرح بها زوجته التي حدّثته عنها طويلاً، كان يقول لها إنّها طعام الفجّار يا حاجة، هناك أنواع في الجبّة أشهى و أطيب، الجبّة للمتقين الصّابرين يا حاجة، لكنّه الآن سيتذوّق طعم هذه النّعمة على الأرض قبل السّماء.

في المنشية آخر محطة وسط المدينة، وقف الباص، فاندلق الكبار من الأبواب، و الصبية من النّوافذ، و اشتدّ الصّدّام بين الصاعدين و النازلين، فركب الحاج علي موجة النازلين مع صرّته، فلم يشعر إلّا و هو يتهادى معها على الأرض آمناً سالمأً، حمل صرّته و بدأ يفتّش عن مكان مناسب يبسط عليه بضاعته، طاف بين مواقف الباصات، حتّى اهتدى إلى رصيف اصطفّ عليه ماسحو الأحذية و بعض الباعة أمثاله، فنشر صرّته على الأرض، هذه الصرّة الطاهرة التي كانت لا ترى الثور، و لا تلمسها إلّا يد الحاجة فهيمة، تضمّ ملابسها الخاصّة، أصبحت تلامس مباشرة أقدار الرّصيف.

رتّب بضاعته و أكثرها للأطفال، و حاول أن ينادي على بضاعته، فخرج صوته ضعيفاً حاداً، فشر بالخجل، فقرّر أن ينادي بصوت خافت، مداراةً للخجل و لرداءة الصّوت. اقتربت منه امرأة مع ابنها، فقال الابن برجاء و دلّال: اشترى لي... اشترى لي... فنهرته أمه، فقال الحاج علي في سرّه: لعنك الله، لماذا لا تريدان أن تُفرحي هذا الطّفل البريء؟ بعدها وقف أمامه شابّ مسترسل الشّعْر، قال بغنج: أعطني علكة، فانحنى الحاج علي بحماس و أعطاه قطعة، فألقى الشّاب باستهتار خمس ليرات و انصرف، أشرق السّرور في نفس الحاج علي، إنّ ثمنها ليرة واحدة، ما هذه التّجارة الرّابحة...! كم تمنّى لو طار إلى زوجته و أخبرها عن أوّل بيعة و عاد، قرأ الفاتحة على نيّة التوفيق، و تلمّس قطعة النّقود جيّداً، ثمّ دسّها في جيبيه، و تحسّس وجودها من الخارج، أضاعت عيناه، و راحت تتراقص يمناً و يسرة، تفتّشان عن زبون آخر، و ما لبث أن ارتفع صوته فقد كسرت الليرات الخمس طوق الحياء.

اقترب شابّ أنيق فخفق قلبه، لكنّه تجاوزه إلى صناديق مسح الأحذية المصفوفة بجانبه، فتعالت صيحات الصبية: تفضّل هنا... لا تدفع إذا لم تعجبك... جرّب مرة

عندي، فحار الشاب في أمره و وقف عند الصندوق الأول، ف جذبته من رجله صبيّ الصندوق الثاني، ف شتمه الأول ثمّ نشب العراك بينهما، و كان سلاحهما زجاجات صباغ الأحذية يحملانها في أيديهما كالخناجر، يدقّ الواحد منهما رأس خصمه، و اندفعا و هما متماسكان إلى جهة الحاج علي، و وقعا فوق بضاعته المرتّبة، فانحنى يبعدهما بنزق، شدّهما بكلّ قوّته، فقد أفسدا البضاعة، و تدخّل المارة و فرّقوا بين المتخاصمين فالتفت أحد الصّبيين و شتم الحاج علي شتيمة جارحة، لأنّه أبعدته بقسوة آلمته، فقال:

- تأدّب يا ولد، أنا في مقام جدّك...

فتضاحك الصّبية ماسحو الأحذية و كأنّ ضحكهم قد شجّع الصّبي، فأخذ يمازح الحاج علي بالشتائم السوقية، فقد عرف بخبرة أولاد الشوارع أنّ هذا الشّيخ جديد في مهنته.

اغتاظ الحاج علي، و غابت الفرحة من نفسه، فقد آلمه أن يهزأ به صبية الشوارع، لملم أطراف صرّته، و رجم الأولاد بنظرة سخط و غضب، و لسانه يلهج باللعنة على هذا الجيل الخبيث، الذي لا يعرف الحياء.

راح يفتّش عن مكان خال من السوقة مناسب لعرض بضاعته، فوجد رصيفاً نظيفاً مدّ عنقه بين شارعين متجاورين، يغصّ بالمارة، فرش صرّته، و رتبّ بضاعته، و أصلح ما أفسده أولاد الحرام، بدأت الشّمس بالارتفاع، و ازدحمت الطّرق، و ضجّ قلب المدينة بالحركة.

وقفت فتاتان أمام البضاعة المفروشة، و بدأتا تتهاامسان، و رأساهما متلاصقان تشيران بيديهما إلى البضاعة، و تتمايلان بدل العذارى، و الحاج علي ينقل نظراته الملتمة بينهما و بين ما يشيران إليه، و قلبه يرقص، أخيراً قالت إحداهما:

- ما ثمن العلكة؟

تشجّع بعد البيعة الأولى و قال:

- خمس ليرات.

فلوت شفتها استنكاراً و قالت بجرأة:

- ثمنها ليرة واحدة، لماذا الطّمع؟ أنت شيخ كبير و تغشّ الناس.

و تدخلت الثانية تؤيد رفيقتها قائلة:

- نعم عيب عليك تغش الناس.

ثم تركناه و انصرفنا، فشرع بالإهانة، إنه لم يسمح لأحد في حياته أن يخذش كرامته أو أن يوجّه إليه كلمة لوم...

(( لماذا تسرّعت...؟! نعم، إنه الطّمع لعنه الله، كنت ألوم في سرّي و أمام زوجتي جارنا أبا حازم السّمان على طمعه، و الآن من أول بيعة أسبقه في الطّمع، لعن الله الشّيطان... لعن الله الشّيطان... ))

تقدّم النّهار، فوجدت الليرات الخمس في جيبه رفيقة لها ثمّ رفيقات، ثم أصبحت كرة معدنيّة ثقيلة يربّتها من الخارج، فامتلكه فرح عارم فجّر موهبته باللحن العذب، فانطلق ينادي على بضاعته بحماس و عفويّة، فهو لا يدري أسمع هذا اللحن من أحد فيما مضى، أم أنّ الإحساس بالنّقود حرّض مواهبه الموسيقيّة الدّفينة في أعماقه فجادت بهذا اللحن الجميل، ثمّ يعود بين الفينة و الأخرى، يربّت النّقود، و هو يصليّ على التّبي، و يحوط الكرة بالأدعية و التبريكات.

تعبت رجلاه من الوقوف، فجلس القرفصاء، لكنّ سنواته السّتين المتقلّة بالصّراع مع الحجارة الصّماء و ساقه الملتوية أبت إلّا الرّاحة التّامة، فجلس على الأرض جلسته المعتادة متربّعاً، يترنّح و يتمايل مع اللحن الذي اختاره إعلاناً على بضاعته، فقد أسكرته النّقود الفضيّة التي راحت تنهمر عليه، انتابه إحساس بأنّه تاجر لا يقلّ عن غيره من التّجار، إنه قادر على العمل و الربح، جزاك الله خيراً يا حاجّة فهيمة، لم أعدم منك في حياتي الطّويلة النّصيحة و الرّأي الصّائب.

مدّ يده يتحسّس حرارة الأرض، ليتأكّد من أنّه في اليقظة و ليس في الحلم، فلم يدر إلّا و الصّرة تطوى أمامه من أطرافها الأربعة، حملها أربعة رجال، لم يشاهد و هو جالس على الأرض إلّا أحذيتهم العسكريّة، نهض كالنابض الحبيس، و تعلّق بساعد أحدهم، قال مبهوراً:

- لماذا تأخذون الصّرة؟!!

فردّ شرطيّ أحمر الشّعر أمرد:

- لنتغطّى بها في الشّتاء...

ثم هرولوا نحو شاحنة صغيرة، ركض الحاج علي وراءهم يتأرجح صاعداً هابطاً  
بساقه العرجاء الملتوية، ماداً يده يستعطفهم بصوته الباكي و بدعواته الحارة، لكنهم  
ألقوا الصرّة داخل السيّارة، و تسلّقوا جوانبها، و ضحكاتهم الشيطانية تزحم ضجيج  
الشارع، ثمّ تبتعد مسرعة.

دارت الأرض بالحاج علي دورات سريعة متعاقبة، فاضطربت المرئيات أمامه،  
و لم يعد يرى شيئاً.

كانت الشمس قد ارتفعت في سماء جرداء، ترسل أشعتها الحارقة، فترتطم بشوارع  
المدينة و تنكسر شظايا.

## فوق تحت

وقف يشدّ قامته المتقوسة و ينظر إلى أعلى، يضغط بيده على وركه، كي يساعد جسمه المتخشب على أن يستقيم، ليرى أعلى المبنى الشاهق، بينما راحت بيده الأخرى تداعب بهدوء أطراف شاربه الأبيض المتهدل.  
( ( الله يلعن الكبر، كنت أرى الرجل على رأس قاسيون، و أنا في المرجة، ماذا أصابني...؟! ماذا أصابك يا حاج صالح؟! ... ))

صرّ عينيه، و حدّق يهجي الكلمات النحاسية اللامعة في أعلى المبنى (( فندق ... )) . لم يستطع أن يقرأ غير الكلمة الأولى، أمّا بقيّة الكلمات فكانت غريبة عليه، لم يتعود لسانه على نطقها، بل لم تقع عيناه على مثلها من قبل، مع أنه يقرأ كل يوم جزءاً كاملاً من القرآن، حتى جسده ببطء و تثاقل و كأنه يلوي غصن شجرة سنديان عتيق، و أخذ ينظر إلى موطن قدميه (( هنا... هنا )) دار حول نفسه مرة و توقف، ثم دار مرة أخرى و عيناه تحفران الأرض، عاد يحدق إلى الأعلى و يحاول القراءة من جديد.

أسرع إليه يهزّ وسطه المحشور داخل بنطال الجينز الكالغ، يرفع وركه اليمنى أكثر من اليسرى، و ماسورة المسدس تتدلى من تحت الحزام الجلدي العريض، غرس في الحاج صالح نظرات متفحصة، رآه شيخاً متهدماً، كل ما فيه أبيض، لباسه، شعره، وجهه، لا يمكن أن يشكّل أي خطر، توقع أن يرتجف الشيخ أو ينسحب كما يفعل غيره عندما يرونه يهزّ وسطه، لكن الشيخ لم يأبه لحضوره المباغت، تأدب معه.

- ماذا أضعت؟

لم يجب.

- عمّ تفتش يا عم؟

طأطأ قامته المتصلبة، و قرب وجهه إلى هذا المتطفل الذي يتحدث بلهجة غريبة عن لهجة أبناء المرجة و سوق الحميدية، تفحصه بعينين ذابلتين يلتصق في بؤبؤهما بقايا ألق، ثم تكلم ببطء، بدا صوته و كأنه آتٍ من أعماق زمن بعيد.

- أفتش عن كنز.... كنز مدفون هنا.

قال في سره: (( الأرض ملساء لامعة كغلاف مجلة الشبكة، لا بد أنّ هذا الرجل معنوه )).

- ماذا... ماذا تقول يا عم؟!... كنز!؟

- نعم يا ولدي كنز.

- عمّ تتكلم؟

- هنا هنا...

و ضرب الأرض بقدم واهنة.

- تفضّل و اذهب من هنا... هذا فندق محترم، فندق خمسة نجوم.

- خمسة نجوم...! نجوم ربك أكثر بكثير... يا ولدي ارفع رأسك لفوق... تطلع إلى السما.

قاطعه بحدة:

- يا عم الاقتراب من الفندق ممنوع.

- ممنوع..! لماذا ممنوع؟!... سبعون عاماً، عمري كله قضيته هنا و لم يمنعني أحد.

عاد ينظر إليه ليتأكد أهو معنوه حقاً، أم...!! إنّ مظهره يدل على الوقار.

- أرجوك يا عم الوقوف هنا ممنوع.

دبّت الحياة في لسانه حارة دفاقة و انطلق يقول:

- كيف ممنوع...؟! هنا... هنا صرفت سنوات عمري، هنا بيتي... ورثته عن جدي،

جاءت جرّافة ضخمة أسنانها مثل أسنان الشيطان، هدمت البيت و بنت هذا ال...

الفندق و وعدوني أن يعطوني حق البيت و ها هي عشر سنوات مرّت و لم يعطوني

شيئاً.

رأى في حديثه كلاماً لا فائدة منه، لكنّه أراد أن يجاريه في تخريفاته.

- و من قال لك إن هذه البقعة ذاتها هي مكان بيتك؟ ألا ترى هذه الساحة الواسعة و

هذا الفندق الكبير؟!... فكيف تعرف مكان بيتك؟

- عمري كله قضيته هنا و لا أعرف مكان بيتي؟!...! إنني أعرفه من دوما من حلب

من بغداد من باريس، لقد حاربنا الفرنسيون و سجننا مع من سجنوا، و سمعنا الكثير



عن باريس و نحن في سجن القلعة، كُنّا نتسلّق نوافذ السجن العالية لنرى مدينتنا الجميلة التي نموت من أجلها، كنت أقول لرفاقي و نحن وراء قضبان نوافذ السجن، انظروا هناك بيتي... كنت أبقى الساعات متسلّقاً النوافذ أتحدّث مع شجرة النارنج التي زرعها والدي وسط الدّار جانب البحرة تمدّ رأسها من فوق البيوت لتراني.

ثمّ خفض صوته و قرّب فمه من أذن صاحبه و همس...

- أتريد أن أقول لك سرّاً خطيراً...؟! كانت شجرة النارنج تحبّني و تغالني.

تأفّف صاحب بنطال الجينز ثمّ قال:

- يا عم لقد تغيّر المكان، تهدّم القديم و امتدّت مكانه هذه الأبنية العالية و لا يمكن للجن أن يعرفوا مكانهم القديم.

- من هنا أعرف الأرض و السماء أعرف رائحة المكان و ضوء المكان، أصغ إنني أسمع قرقرة ماء البحيرة، أسمع زقزقات العصافير بين أغصان شجرة النارنج...

ضجّت الساحة فجأة و ارتفعت أصوات سيارات و منبهات حادة و زمامير و عتّانات، و ارتجّ المكان، أسرع صاحب بنطال الجينز و نبع رفاقه من الأرض و السماء، أحاطوا بالسيارات السوداء التي وقفت أمام باب الفندق، ترجّل كثيرون و تدافع المسلّحون و دخل من دخل و خرج من خرج، ثمّ غابت السيّارات، و في لحظات خلت الساحة و عاد الصمت ثقيلاً مهدّباً أمام الفندق كما كان.

كان الحاج صالح ما يزال يحدّق إلى الأعلى، و كأنّه لم يسمع و لم يرَ ما يجري حوله، كان يحاول أن يعدّ طوابق الفندق.

- ستة عشر، سبعة عشر...

خانته عيناه... ضاعتا بين التماع واجهة الفندق الزجاجيّة.

اغتاظ صاحب البنطال الجينز عندما رأى الشيخ مسمّراً مكانه، لو انتبه رئيسه إلى وجود الشيخ لكانت العقوبة صارمة، عاد و معه بعض رفاقه الجنزيّون يهزّون أوراكهم بحركات مضطربة، قال بكلمات نزقة فلفظ حرف القاف و الكاف جيماً، في حين كان يحاول من قبل أن يلفظهما بلهجة أبناء دمشق:

- ألم أقل لك امش من هنا، يبدو أنّك لا تفهم بلغة الأوامر.

ابتسم الحاج صالح و سحب كلماته من أغوار صدر عريض.

- يا ولدي إتك ما تزال صغيراً، لا تعرف ما معنى أن يضيع الإنسان بيته.
- أقول لك امش من هنا و إلاّ...؟
- و إلاّ ماذا؟؟؟ ماذا يمكن أن تفعلوا أكثر من سلب بيتي و طردي منه؟؟؟
- أيّ بيت هذا الذي تتكلّم عليه؟ ماذا تخزّف...؟ احترم سنّك و انصرف.
- لن أترك المكان حتى أستردّ حقّي.
- حقّك؟ نحن نحترمك، لو كنت شاباً لعلمناك كيف تخالف الأوامر.
- لو كنت شاباً لعلمتكم كيف تقفزون في الغوطة من شجرة إلى شجرة، و البنادق في أيديكم، و رصاص الفرساوي يحصد أوراق الشجر من حولكم، و لا يترك إلاّ أغصاناً.

دارت العيون تتفاهم و تتحدّث، قال أحدهم برقة مفاجئة:

- تعال معنا إلى مدير الفندق و اشرح له قصّتك.
- انتصبت قامته، عادت شايّة، أخيراً وجد من يصغي إلى شكواه، أدخلوه من باب صغير جانب محطة سيّارات الفندق، و غابوا في فتحة قبو مظلم، و لم يعد أحد يسمع لهم صوتاً. بعد ثلاثة أيّام أو أربعة لفظته الفتحة المظلمة، خرج يسرع في مشيته و قد ازداد ظهره تقوّساً، يعضّ على شفّتيه، و عندما وصل إلى مكان بيته وقف و شخص ببصره إلى الأعلى و تابع...

## في الليل

طار خيالها من بين قضبان الزنزانة... (( سعاد... حمامتي البيضاء... سامحيني...  
سامحيني يا سعاد... و الله كل ما فعلته من أجلكم... من أجل أن تعيشوا... أن  
تأكلوا... و الله يا سعاد )) أحسّت بأنّ كبدها بدأت تنزف، فعضّت على باب  
الزنزانة، لم تنتبه إلا على ألم أسنانها تتغرس في الحديد الصّدئ (( ماذا فعلت يا  
رَبِّي؟!... ما أكبر ذنبي!... ))

جاء الشرطيّ الأمرد مرّة ثانية، و هي على باب الزنزانة... جاء متسللاً كلصّ:  
- قولي ماذا تريدان؟ أنا تحت أمرك.

كانت عيناه كرتي زئبق مضطربتين، قرأت سامية في عينيه رغبات لا تفهمها إلاّ  
الأنثى، عادت إلى رشدها، و ابتعدت عن الباب، أشعل الأمرد ضوء الزنزانة،  
و كاد أن يدخل رأسه من بين القضبان.

- لماذا تخافين منّي؟! سوف أساعدك، غداً عند الصّباح ينحلّ كلّ شيء.  
سمع صوتاً فأطفأ النّور و انساب بعيداً.

تكاثف الظلام و الخوف و القلق في نفس سامية، عاد خيالها يقفز إلى تلك الغرفة  
الوحيدة المبنية من القرميد على طرف المدينة النائي، لقد أفردت فيها أولادها الثلاثة  
في هذا النّهار الملتهب، و خرجت مع ذلك القزم الأصلع الذي أغراها، إنّها المرّة  
الأولى، و من المرّة الأولى وقعت... (( ما أسوأ حظّي... المنحوس منحوس... هل  
أكل الأولاد...؟ زينة الصّغيرة هل وجدت من يرضعها...؟ حتماً إنّها تصرخ الآن من  
الجوع و الحرّ و الدّباب، ماذا ستفعل سعاد معها...؟ يا ربّ  
و الفضيحة... و النّاس، ماذا سيقول عني الجيران و الأقارب حين يعلمون  
بالخبر...؟ ))

سمعت صوت أقدام و خليطاً من الكلام، أضيء مصباح الغرفة، و أطلّ وجه صارمّ  
تتبعه ثلّة من الأعوان، نظر إليها بقرف:

- أهذه هي؟!!

- نعم يا سيّدي.

تابع خطواته ثم عاد فجأة يحدّق فيها! إنّها تضجّ بحيويّة الشباب، انغرست نظراته في جسدها النّاضج... مسح بأصابعه على شاربيه ثمّ تابع سيره...

أطفئ الضّوء... ظلمة فوق ظلمة فوق ظلمة...

(( هكذا أصبح كالكلبة الجرباء... أصبح محتقّرةً في نظر الجميع... ))

اشتعلت النّار في داخلها، و سرى في دمها مزيجٌ من القهر و الغضب و الألم.

(( بساعات قليلة أسقط في الهاوية... إنّها غلطة العمر... ما أكبر ذنبي...! يا

ربّ... خلّصني يا ربّ... الأولاد بحاجة إلى الطّعام... و أبوهم تركنا و رحل دون

أن يُعلّم أحداً و علّقهم في رقبتني... ما أثقل المسؤولية؟! هذا القزم الأصلع فرش لي

الطّريق حريراً... ساعة و تعودين غائمة، سيأكل الأولاد حتّى يشبعوا، يعرف هذا

الثّعلب من أين يقبض على فريسته... كيف أقنعني؟! كيف أغراني؟! قال لي:

الطّريق آمن، و مزرعة أبو أحمد خارج المدينة، لا يصلها الجنّ الأزرق، مالك

خائفة؟! هل أنت الوحيدة؟!... انظري إلى غيرك... مسكينة أنت لا تعرفين كيف

تتصرّفين... النّاس حولك يأكلون و يلبسون... و أنت يا مسكينة!! ))

فجأة ارتفع هرج و صياح، ثمّ بدأت الأصوات تقترب من الزّنزانة، بينها صوت امرأة

حادّ يتحدّى و يلعن، ظهر شرطيان يدفعان امرأة من مناطق محرّمة من جسدها،

يلتصقان بها، و يتظاهران بالغضب لأنّها لا تستجيب للأوامر، و هي غير مبالية بما

يفعلان، تعمّدا إطالة العراك معها، ثمّ أشعلا الضّوء و دفعها داخل الزّنزانة و أغلقا

الباب، و قفت وسط الغرفة ذنّبة متمرّدة ترشق كلّ من حولها بنظرات شرسة، و رائحة

الخمرة تنتشر منها.

- يا أولاد الحرام... روحوا شوفوا أمّهاتكم... تفو عليكم... تفو على شرفكم.

كان يستر جسدها ثوب براق لا يكفي لستر عورة رجل، امرأة في مقتبل العمر ذات

جسد مكتنز و وجه صبيح، شوّهته بالأصباغ و الألوان الفاقعة. وقعت نظراتها

الطّائشة على سامية، ثبتتها قليلاً ثمّ اتّجهت إليها تسير بغنج، قالت بلهجة ممطوطة:

- و أنت ضبطوك كمان؟!

خافت سامية و انكشفت على نفسها، عرفت الضّيّفة الجديدة بخبرتها الطّويلة أنّ

سامية هاوية أو محترفة جديدة، فتابعت قائلة:

- لا تخافي، أسبوع أو عشرة أيام... و بعدها تعهدّ و إفراج...  
قالت سامية بعفوية:

- أسبوع...! و الأولاد؟!!

- عندك أولاد؟

أصاب سامية الذّهل، و كأنّها لم تسمع تعليق ضيفتها.

- عشرة أيام، هذا إذا رحموك و لم يكن هناك ادّعاء.

- يا ربّ.

اضطربت، غامت عيناها ثم انفجرتا بالدموع.

رقّ قلب الضيفة لحالها فجلست جانبها تهدئها:

- لا تهتمّي... المرّة الأولى صعبة... سوف تتعودين على حياة السّجن... كلنا

عائنا في الوقعة الأولى ثمّ تعودنا... كلّها كمّ يوم و تعودين إلى أولادك.

ازدادت دموعها و هي تفكّر في كلّ كلمة تسمعها.

التفتت الضيفة إلى الشّرطيّين اللذين ما زالوا واقفين وراء الباب، و عيونهما الشرهة

ترتع فوق جسدها المثير، كشفت عن أعلى فخذها البضة و قالت:

- فخذ أمك أحلى أم هذه الفخذ؟

خاف الشّرطيّان من أن تفحش في قولها أكثر من ذلك، فأطفأ الضوء و انصرفا.

عادت إلى سامية تواسيها:

- احكي لي قصّتك... احسبيني مثل أختك... افتحي لي قلبك... شوفي أنا اسمي

الحقيقي عفاف، لكنّي معروفة بين زبائني باسم عذاب، يحلو لهم أن ينادوني بهذا

الاسم لأنّهم يدّعون بأنّني أعذبهم، و الله أنا لا أفعل شيئاً، لكنّهم هم الذين يتوهّمون

ذلك، تزوّجت و أنا صغيرة، لكنّ زوجي النذل أراد أن يجعل من جسدي دجاجة

تبيض له ذهباً، تركته، و لكن أين أذهب أنا و ولدان، أبي لا يستطيع إطعام إخوتي،

اضطرت إلى العودة إلى المقدور الذي قادني إليه زوجي الأول... ماذا أحكي

لك؟!... قصة طويلة توجع الرّأس، و أنت؟

ساح خيال سامية و هي تصغي إلى صديقة الزّنزانة عفاف. (( هل سأتحول إلى...))

هل سأصبح مثل هذه المرأة؟!... بنت... ((

أرعبتها الفكرة ثم قالت بصوت يذبحه الألم:

- و الله... أنا... ماذا أقول...؟ استندت من بائع متجول يطوف حارتنا و يعسكر فيها طول النهار.

فقاطعتها عفاف:

- أبو علي دنكور القصير الأصلع!

- هو، هو بنفسه.

- الله يفضح عرضه... كم مستورة فضحها هذا القواد.

تابعت سامية:

- ورطني، لم أعد أقدر على سداد ديونه، كان يشجعني على أن أستدين منه ما أشاء، و بلسان كلسان الحيّة، أقنعني بأنّ الأمر بسيط، غيري كثيرات فعلن ذلك دون أن يدري أحد، زيارة سريعة إلى مزرعة أبو أحمد و بعدها تتحلّ كلّ الأمور. هزت عفاف رأسها:

- أبو أحمد شبقلو... الحرامي ابن الحرامي... لا تكلمي، عرفت قصّتك.

- كيف عرفت؟

- أمثالنا قصّتهنّ واحدة.

- و أبو أحمد قصّته معروفة؟

- أبو أحمد هذا يا حبيبي من تجار الأراضي، حرق الدنيا هو و جماعته، رفعوا الأسعار إلى السماء، لك شكله مثل القرد، عنده ثلاث نسوان، و عينه فارغة لا يشبع، يوقع الحريمات، و يطلع مثل الشعرة من العجين، ابن حرام معه يدفع، مرّة من المرّات ضبطونا في مزرعته، ادّعى ابن الفاجرة بأنّي حراميّة جنّت مزرعته لأسرقه، هو خلّص نفسه و وقعني في التّهمة، لكن ما سكتت، دبّرت له خازوقاً طلع من رأسه، بعد مدّة طويلة تصالحنا و عادت المياه إلى مجاريها فأغرّبت ثلاث شبّان قبضيات بسهرة عامرة فزوروه المستشفى.

أطلّ الشرطيّ الأمر من جديد يبحث بعينه التّائهتين عن سامية، قال بصوت

خفيض:

- أين أنت؟

انتفضت عفاف و اندفعت إلى باب الرّزانة هائجة، و كأنّ نوبة من الجنون أصابتها  
و هي تصيح:

- ماذا تريد يا ابن الفاعلة؟!

خاف الشرطي من ثورة عفاف غير المتوقّعة و ابتعد مضطرباً، فتابعت بصوت يدوي  
في الممرّات النّائمة:

- أين رئيس المخفر؟! أين الشرّطة...؟ أين الحكومة...؟ لك أين رحمت يا...

عندما لم تجد مجيباً التفتت إلى سامية و تابعت:

- لك ما رأيت رجلاً إلّا و عينه زايفة... إلّا و طمعان فينا...

عادت إلى جانب سامية و ثورتها لم تهدأ بعد:

- يجب أن تكوني قويّة... لا تخافي أحداً... من لم يكن ذنباً أكلته الأرانب قبل  
الذّئاب، مثل هذا الجبان... آه لو أمسكته لأريتك العجب.

بدأت ثورتها تهدأ رويداً رويداً و أخذ الصّمت يهيمن من جديد لكنّ (عفاف) أخذت  
تنتحب ثمّ انخرطت في بكاءٍ و نشيج.

- لا تصدّقي أنّي قويّة، إنّني أحاول أن أغطّي ضعفي بالصّراخ و التحدّي، كي  
أحمي نفسي، أنا مثلك ضعيفة، هكذا كُتِبَ علينا، أن نكون ضعيفات... صيداً سهلاً  
للأقوياء، فاكهة لهم...

بدأت سامية هي الأخرى تبكي، تعانقتا و امتزجت الدّموع بالدّموع، ماتت الحركة في  
المخفر عدا الأنفاس المقهورة، و الدّموع الحارّة.

عند الصّباح، كانت سامية في غرفة صاحب الوجه الصّارم يساومها على البراءة.

## مشرق النور

تجاوزت الساعة الواحدة ليلاً، و أنا أراقب عقاربها التي تتعانق ثم تفترق مرّات و مرّات، ليس من عادة ابني الأصغر أن يتأخّر بعد العاشرة ليلاً مهما كانت المحاضرات في الجامعة كثيرة، اتصلت بأصدقائه الذين أعرفهم، لكن دون جدوى. عقرب الثواني ما يزال يهتّز كراقصةٍ لعوب، و كأنّه يهزأ من حمى أعصابي الملتهبة، ترى ما هو الحادث الذي تعرّض له؟!... لم يتّصل... ليس من عادته أن يفعل ذلك... حاولت أن أُخادِع قلبي بسماع الأخبار، قلبت قنوات التلفاز، فإذا بمذيع قناة الجزيرة (( جميل عازار )) ينظر إليّ من وراء كتفه اليسرى و هو يستند بساعد وحيد إلى المنضدة، و يقول بتشدّق واضح، و كأنّه يمضغ الكلمات مضغاً:

(( سقط من العراقيين يوم أمس على أيدي قوّات المارينز، ثلاثة و تسعون قتيلًا و أكثر من خمسمائة جريح )).

ثم ابتسم ابتسامة غامضة يعجز (( فرويد )) أبو التحليل النفسي عن تفسير دوافعها أو مدلولاتها. حاولت أن أهرب من ابتسامته، فضغطت زر القنوات، فظهرت مذيعة قناة الحرّة الزنجيّة، لتقول بدّلْ أنثويّ مرح، تمط الكلمات و كأنّها تقدّم برامج (( طرائف من العالم )):

(( خبر عالٍ... أخطأت الطائرات الأمريكيّة فقتلت بصواريخها أكثر من مائة شخص غرب العراق كانوا في حفلة عرس، و قد ظنّنت الطائرات أن العرس حركة تمرّد، و سوف يفتح تحقيق في الحادث )).

ثم ابتسمت ابتسامة حاملة و كأنّها تغازل المشاهدين بعينيها الحوراوين. اجتاحتني موجة من الأسى و الغضب، أطفأت التلفاز، عادت عيناى تنظران إلى الساعة المستهترّة المعلّقة على الجدار... لقد اقتربت عقاربها من الثانية، سمعت الباب يفتح، دخل ابني الأصغر حسام تمثالاً من صمت، فقامت إليه بركاناً من غضب، لكنّه لم يأبه لسورتي.

جلس على أوّل كرسيّ قرب الباب و كأنّه يستعدّ لمغادرة البيت من جديد.

- أين كنت؟! -



لم ينطق التمثال.

- أجبني، أين كنت؟!

أشعل صمته بقايا الغضب الخبيثة في صدري، فصحت ثائراً:

احك و إلا...

كانت عيناه تتوقدان و وجهه كبة نار، ساد صمت قصير ثم قال و هو ينظر إلى

ساعته:

- سألق بابن عمي.

تفرست في وجهه الملتهب، و مزيج من المشاعر ينتابني:

- ماذا؟!

عاد إلى صمته، حاولت أن أستجلي من وجهه حقيقة الأمر... إنَّ أمامي إنساناً آخر

لا أعرفه، رفع رأسه و قال:

- سألق بابن عمي خالد.

- تلحق بابن عمك؟!

- نعم.

- إلى أين ستلحق بابن عمك إن شاء الله؟!

- إلى العراق.

- إلى العراق؟

- نعم، أنا و رفاقه في الجامعة ودّعناه منذ ساعة.

- و ماذا سيفعل في العراق؟

أطرق برأسه من جديد ثم عاد ينظر في ساعته، و كأنه يستحث عقاربها ثم قال:

- راح ليجاهد.

- يجاهد؟!

- نعم.

- هل تعرف ما معنى يجاهد؟!

- نعم، يحارب أمريكا.

- ما شاء الله، ابن عمك خالد يحارب أمريكا و جيوشها و طائراتها؟!

لم يجب .

- هل عرف أهله بسفره؟

- كانت أمّه في وداعه، دعت له بالتوفيق.

- امرأة عمك؟

- نعم.

قمت إلى الهاتف و اتصلت ببيت أخي، جاءني صوت زوجته واضحاً مستبشراً،  
حييتها و اعتذرت لها عن اتصالي المتأخر، ثم قلت متصنعاً الهدوء:

- أصحيح ما سمعت؟

- ماذا سمعت؟

- سفر خالد!

- نعم، سافر إلى العراق.

- إلى العراق؟

- و ما الغريب في الأمر؟

- ما الغريب! أنت تعرفين الأوضاع هناك، و ربّما... ربّما...

- ربّما يصاب أليس كذلك؟؟!!

- ربّما يصاب أوووو...

- أو يموت نعم... لكنه سيموت شهيداً.

لجمني جوابها، ثم قلت:

- لا، لا... إن شاء الله يرجع سالمًا، أنا أستوضح عن الأمر فقط.

- ربّك كبير يا أبو صالح، لا تقلق، غيره ليس أحسن منه، إذا لم يذهب الشباب فمن  
يذهب إذا؟؟!!

- مرّة ثانية... عدم المؤاخذه عن المخابرة المتأخّرة، تصبحين على خير، سلّمي على  
أخي.

(( خالد... هذا الطالب النحيل، بقسماته الطفوليّة، سيقاقل قوّات المارينز...! يقاتل

أمريكا، يترك كليّة الطب، و يلتحق بالمجاهدين؟! و أين؟! في العراق، ماذا سيفعل

هذا الغرّ في بلد الفوضى و القتل؟! ))

كانت نظرات ابني الشامته تسخر مني، فقد عرف من المكالمة ما أجابتي به زوجة عمّه، قلت له محاولاً التهزّب من حرجي:

- كنت تراسل أخاك عبد القادر في الكويت ليؤمّن لك عملاً هناك بعد أن تتخرّج من الجامعة، فنتغرّب ثم تدفع بدل الخدمة العسكريّة، ما الذي تغيّر الآن؟  
كان جوابه الصّمت و الإطراق.

- اخلع ملابسك و قم إلى النوم.

عندما نظرت إلى وجهه من جديد، خشيت أن يغادر البيت ليلاً بعد نومي، و يلحق بابن عمّه، فربّما جاء ليخبرنا ثمّ يسافر، تابعت محاولاً تهدئته:  
- غداً سنناقش الأمر بترؤ.

كان نومي متقطّعا، أو بالأحرى لم أنم، لقد تحوّلت أذناي إلى مرصدين تتحسّسان أضعف نأمة تصدر في البيت.

تقلّبت في فراشي، ساح خيالي شرقاً و غرباً، عاد إلى الماضي، و قفز إلى المستقبل، لكنّه كان يتجاوز متعمّداً موقفاً طالما تهزّبت من استرجاعه في خيالي، كما حاولت محوه من ذاكرتي لكنني لم أفلح، موقف مغادرتنا أنا و أصحابي التّجار العراق، أو على الأصحّ، هروينا من العراق، لكنّه الآن موقف واضح متوهّج في ساحة الوعي بألف شمس، عندما أعلن (( ريتشارد بتلر )) سحب فرق التفتيش عن أسلحة الدّمار الشّامل و تاهّب القوّات الأمريكيّة لضرب العراق، كانت سيّارة الأجرة الصّغيرة التي تقلّنا تسرع شمالاً، و أمامنا سيّارات فرق التفتيش التي أعطت الإشارة بضرب بغداد بعد أن تتجاوز أماكن الخطر، كنا نرى الرجال في شوارع بغداد يحدّقون إلى السماء بعيون من رصاص ينتظرون الطائرات الأمريكيّة، كانوا بقاماتهم الفارعة يرتدون الثوب العربيّ الطويل فيبدون كرجال أسطوريين يتحدّون غضب الآلهة.

تجاوزنا بغداد بمسافة قصيرة، اتجهت فرق التفتيش غرباً إلى الأردن، و تابعنا طريقنا شمالاً إلى سوريا، كنا نتلقت يميناً و يساراً، نراقب ماذا سيحدث، توهّج لون أصفر ثمّ تحوّل مع ليل بغداد التي قطعت عنها الكهرباء إلى لون برتقالي قاتم، و ارتفع جحيم اللهب من بعيد، و بعد نصف دقيقة، سمعنا دويّاً هزّ أركان سيّارتنا، بعد أن هزّ أركان المدينة السّاهرة.

أحسست بأن قلبي قد خرج من مكانه، قال السائق بصوت واثق أجشّ:  
- بدأ القصف.

سكتنا قليلاً، سأله أبو أحمد تاجر الغنم الذي يجلس بجانبه:

- في أيّ مكان تتوقّع سقوط الصّواريخ؟

التفت السائق إلى اليمين و قال:

- في الكاظميّة.

- و كم يستمرّ القصف عادةً؟

- ربع ساعة أو أكثر.

سألته:

- أين تسكن أنت و عائلتك؟

- ليس بعيداً عن الكاظميّة.

شعرنا بالحرّج ثم بالخجل، رجلٌ يترك بيته في هذه اللحظات الجهنميّة ليوصلنا آمنين  
إلى الحدود، قلت له:

- نزلنا في أقرب استراحة، و عد إلى بيتك، فربّما كانت أسرتك بحاجة إلى  
مساعدتك.

لكنني في دخيلة نفسي كنت أخشى أن يستجيب لرجائي و ينزلنا في الطريق...

- أنتم ضيوفنا، عيب أن أترككم في هذا الوقت.

- يا رجل أهلك أولى بمساعدتك.

- أهلي لهم ربّهم، لقد اعتدنا على القصف و الموت.

- و لكن نرجوك أن...

قاطعنا قائلاً بنبرات حاسمة:

- عليّ الطلاق لن أترككم حتى أوصلكم إلى الحدود.

بدأ أبو أحمد جانب السائق يداعب بأصابعه المضطربة شاربه الأسود الغليظ الذي  
تركه ينبت دون تشذيب دلالة على الرجولة و الرّعامة، فهو أحد وجهاء عشيرة

المطارزة التي تمتد من حلب إلى أطراف البادية. ثم راح ينظر إلى ساعته، سأل السائق:

- كم بقي من الوقت لنصل الحدود؟

- أربع ساعات.

- أربع ساعات! ألا يوجد طريق مختصر؟!

- هذا أقصر طريق.

كنّا نتلفت في كل اتجاه فإذا ببركان آخر ينفجر وسط بغداد، و كتل من النار تتصاعد، ثم دويٌّ مرعب يتبعه، انكمش كلُّ منّا في مكانه، سألني أبو أحمد، فأنا التاجر الوحيد بينهم الحاصل على الشهادة الثانوية:

- في رأيك يا أبو عبده هل ستتأثر الأسواق بعد هذا القصف؟

لم أجب، فقد رجمه السائق بنظرة كانت أشدّ وقعاً على نفوسنا من القصف، حدّقت في وجه السائق بقسماته الحادة و نظراته التي تتقب الظلام، ثم في وجه أبو أحمد الذي اكفهر، فأنا أعرفه من أحاديثه و قصصه و مغامراته رجلاً لا يهاب الأهوال، لا أنكرُ أننا - التجار الأربعة - كنّا خائفين، لأنّ الصمت كان يمتدّ دقائق طويلة، و نحن الذين في سفراتنا السابقة لا نقطع عن الثرثرة و الممازحة.

طلب أبو أحمد من السائق أن يتوقّف قليلاً، نزلنا جميعاً، تباعد كلُّ منّا عن الآخر ليفرغ مئانته التي أصابها الوهن من صوت الصواريخ، لكنّ السائق بقي مكانه وراء مقوده، فجأة دوى انفجار مزلزل، فرجعنا بسرعة إلى السيارة، و أفرغ كلُّ منّا ما تبقى من مئانته في ثيابه.

عدت أتقلّب في فراشي، أرهف أذني لأية حركة تصدر عن ابني حسام. كنت أسمع صرير سريره، لا شكّ أنّه مثلي يتقلّب و يقلّب الأمر على وجوهه...

علا صوت المؤذن بالتسبيح، يعلن ولادة فجرٍ جديد، فحلّق خيالي مع كلماته يستجلي مشرق النور، و طاف دماغي المتعب يهوّم في عالم الأحلام، فغام الواقع و تمطت الرؤى، فإذا بابن أخي خالد يتقدّم من الشّمال نحو سيّارتنا الهاربة و قد أصبح رجلاً بقامة طويلة و وجه جديد صارم، كان يسير بخطوات واثقة تهتزّ الأرض تحت قدميه، يحدّق إلينا بغضب، ثمّ تحوّل إلى مارد عملاق تمرّ طائرات الغزو من تحت

إبطيه مسرعة هَلِعة، داس بقدمه الجبارة سيارتنا فسواها بالأرض، أحسنا أننا تحولنا  
داخلها إلى صراصير مسحوقة، ثم تابع سيره إلى الجنوب حيث القصف و الموت.  
استيقظت من غفوتي و جلاً طائش اللب، و اتجهت إلى غرفة ابني حسام، لم أجد  
أحداً، سوى ورقة فوق سريره، راحت عيناى تلتهمان كلماتها:  
( أنا في طريقي إلى العراق، ادعوا لي بالتوفيق، سلامي إلى الجميع.

المجاهد في سبيل الله

ابنكم حسام ))

## من فوق الأفق

طائرتك تسبح فوق الغيوم البيضاء المتناثرة في المدى الأزرق اللامنتاهي، ينتابك شعور بل مشاعر متناقضة، إنك تركب الطائرة أول مرة في حياتك، ينتابك شعور بالخوف و اللذة، و شعور جديد أو شعور نادراً ما يمتلكك، هو متعة الانتصار على تجربة كنت تشفق منها، ثم أحسست بها نجاحاً و متعة جديدة تماماً كمن يخرج من عملية جراحية معافى، بعد أن ركبته الوسواس و المخاوف.

عندما تعود بنظرك من النافذة الصغيرة إلى داخل الطائرة، و ترى وجوه المضيفات المبتسمة أبدأً، تزداد راحة، و تنسى الآيات و الأدعية التي لهج بها لسانك، و أنت معلق في الفضاء العميق الشامل، تتناول وجبة الإفطار، تنظر إلى الجالسين حولك، تنتظر أن يأكلوا ثم تقلدهم، إنك لم تتعود أن تأكل مثل هذه الوجبات الحضارية، سترى في هذه الرحلة أشياء جديدة، و ستبقى ذكرياتها بتفاصيلها عالقة بذاكرتك، تتحدث عنها طويلاً إلى أصدقائك، و في المستقبل القريب أو البعيد إلى أولادك و أحفادك، لأنها رحلة قد لا تكرر.

وقع اختيار العائلة عليك لإحضار أبيك المقعد الذي يتعالج عند أخيك الأكبر في أحد المشافي الحديثة في بلد الذهب الأسود، لم تنفع مع الرصاصة الغادرة التي استقرت في صلب أبيك في الانتفاضة الأولى كل ما وصلت إليه عبقرية الطب و تقنياته في مخيماتكم و مدنكم، كنت الوحيد من بين إخوتك صاحب عمل حر، بإمكانك الانقطاع عن العمل و السفر دون صعوبة، و دون روتين الموافقات الأمنية لمن يعمل موظفاً.

زال خوفك تماماً بعد أن شربت الشاي و دخنت سيجارة و أنت تقلب صفحات مجلة وضعت في مشبك أمامك، لا تبخل بصور الغيد الحسان و المناظر الجميلة، أخذت تحسد رجال الأعمال على رحلاتهم الممتعة إلى بلاد الدنيا، لكن الهم المستوطن في أعماقك على أبيك و الإشفاق عليه يقتحمان عليك متعة اكتشاف كل جديد.

علا صوت مكبر الطائرة يطلب ربط الأحزمة، فقد حانت العقبة الأصعب، عقبة الهبوط، اعتصمت ثانية بالأدعية و المعوذات، نظرت من النافذة الصغيرة المستديرة، كانت الأرض ذهبية تلمع تحت شمس الظهرية، و تقترب منك رويداً رويداً، بانث

المدينة بأبنيتها الهندسية المنسقة تكبر و تتسع، ما أجملها!! تبدو كمدينة خيالية على كوكب آخر كما يتخيلها رسامو قصص الخيال العلمي، إذاً الرسامون لا يأتون بجديد، كل تخيلاتهم من الواقع إنها لاتشبه أي مخيم من مخيماتكم، التصق جبينك بزجاج النافذة، عينك تعبتان من هذا العالم الجديد المبهر، نسيت الأدعية و الصلوات.

أخرجك صوت المكبر من دهشتك (( الحمد لله على السلامة )) كررها بعدة لغات طبعاً لم تفهم منها إلا العربية، لأنك لم تتابع دراستك فقد أوقفتك الإضرابات و المواجهات و الاعتقالات المتكررة عند أول المرحلة الإعدادية، كان خيالك نشيطاً، سترى في الخمسة عشر يوماً المسموح لك الإقامة بها دنيا جديدة و أشياء غريبة، طالما حدثكم عنها أخوك عند زيارته إلى الوطن، سترى بلداً يلحق رحيق الحضارة، كم سيكون اللقاء حاراً؟!

ستعانق أخاك طويلاً، و تقبل أولاده الذين ينتظرونك في المطار، و أفواههم الصغيرة تزغرد بكلمة ( عمي عبد الله... عمي عبد الله... ).

إنك تقلد الركاب في كل حركة و عمل، حملت حقيبتك مثلهم ، و سرت في صف طويل فيه العرب و غير العرب، فيه من كل الجنسيات، الشقر الطوال و السمر القصار و السود و المهجنون، فيه من كل ألوان البشر، سلمت جواز سفرك و أوراقك كالأخرين، ملأت الاستمارات و وقّعت على التعهدات و وقفت تنتظر معهم عند بوابة الدخول، يظهر من بعيد وراء حاجز زجاجي المستقبلون، يلوحون بأيديهم، و يطلقون عبارات الترحيب التي لا يسمح الحاجز الزجاجي بنفاذها إلى الطرف الآخر، استطعت بعد جهد أن تميز أخاك و أسرته من بين الحشد، لوحت لهم بيديك، عانقتهم في الهواء، سألتهم بالإشارات عن صحة أبيك.

لم ينتظر الشقر الطوال معكم، كانوا يعبرون مباشرة، فيقف موظفو المطار بثيابهم العسكرية و التقليدية، يحيونهم بابتسامات عريضة، مصحوبة بعبارات الترحيب العربية و غير العربية، حدثتك نفسك (( هكذا يجب أن تكون الضيافة العربية، الغرباء أولاً، حتى نكسب سمعة حسنة في الخارج و نمحو تهمة الإرهاب، ألم تسمع



المثل العربي الذي يردده أبوك - شفاه الله - / لا يكرم المرء في محله / نعم الإكرام للغريب ((.

انتظرتم... و طال انتظاركم، جاء عسكري يحمل بيده بعض الجوازات، في وجهه ملامح غريبة، تقدم إليه المسافرون و أنت معهم، سكت العسكري برهة ليضفي على شخصه أهمية خاصة، ثم قال بلهجة أمره:

- إلى الورا، الجميع عند الحائط.

لاحظت أنه يلفظ الطاء تاء، تراجعتم بهدوء، نادى الاسم الأول ثم الثاني و هكذا، تقدم كل واحد يأخذ جواز سفره ثم يعبر بوابة التفتيش، قال أحد المسافرين:

- إن الإنسان يظهر داخل البوابة عارياً حتى من ورقة التوت، من خلال منظار إلكتروني يرى منه كل شيء.

قال آخر:

- إنه أحدث جهاز تفتيش.

علق ثالث ساخراً بصوت منخفض:

- يا لمصيبة النساء.

أضاف رابع مصححاً:

- لا تظهر في الجهاز إلا الأشياء المعدنية.

كثرت الآراء حول عمل الجهاز و عملية التفتيش، و كثر اللغط.

ذهب العسكري ثم عاد بعد فترة يحمل بعض الجوازات، بدأ عددكم يقل، تساءلت في سرك (( متى سيأتي دوري؟!)).

وجد الضجر سبيله إلى نفسك، تقلص عددكم، لم يبق إلا بضعة أشخاص و لم يبق وراء الزجاج إلا بعض المستقبلين، بينهم أخوك و أسرته، أشرت إليه مستفسراً عن سبب التأخير، فأخذ يقلب كفيه جاهلاً ما يحدث، انتظرتم... جاء عسكريان أحدهما برتبة تجهلها، حدقا بكم ثم رجعا، انتابك قلق غامض، كل شيء سليم، الجواز و إذن الزيارة و بطاقة الطائرة، أخذ شاب في عقده الثالث يشكو إليك همه، في خمس دقائق قص عليك سيرة حياته، فهتمت منه أنه دفع ثمن الإقامة بعد أن باع حُلِيَّ زوجته لكن الكفيل من أبناء ذلك البلد لم يحضر لاستلامه حسب قوانينهم،

و ربّما كان مسافراً إلى الخارج، تعاطفت معه، ثم شعرت بالضجر منه، إنه يسرد عليك قصته دون توقف، و تفكيرك مشتت مضطرب، جاء موظف بلباس تقليدي وسأل:

- من منكم (( عبد الله البديري ))؟

أجيبته:

- نعم... أنا (( عبد الله البديري )).

حدّق إليك ثم قال:

- ما اسم أمك؟

- جهاد.

كرر الاسم:

- جهاد.

- نعم جهاد.

تركك و عاد، وقفت حائراً، بدأ الشاب من جديد يعيد عليك تفاصيل مشكلته، ضقت بنطفله، ساح خيالك في وسط غابة من الأشواك، انتبهت إلى شقيقك وراء الزجاج يستفسر عما جرى بينك وبين المسؤول من حوار، قلبت له كفيك و شفتك السفلى، انتظرتهم، عاد أربعة موظفين بخطوات حازمة، أحدهم بلباس تقليدي قال بلهجة من أوكلت إليه مهمة خطيرة:

- من منكم عبد الله البديري؟!؟

- نعم... أنا.

- أنت عبد الله البديري؟!؟!!

تقرس في وجهك و هيئتك طويلاً ثم سأل:

- أسم أمك جهاد أم جهان؟!؟

- جهاد.

- جهاد... إنك تعترف إذن!!

- بماذا أعترف؟!؟

- تعترف بأن هناك تلاعب.

- أي تلاعب!؟
- تلاعب بالأسماء.
- إن الطلب الذي قدمه أخي...
- لم يدعك تتم كلامك، قاطعك باستهانة:
- لقد منحناك إذن الزيارة بناء على الطلب الذي قدمه أخوك و جاء فيه أن اسم أمك  
جهان لاجهاد وهذا ما يجعلنا...
- وهل في هذا...
- إنك لا...
- لكن...
- ال...
- ...
- ...
- لا يوجد طائرة في ذلك اليوم لتعود بها إلى بلدك، و لم يسمح لك بعبور بوابة التفتيش  
لأنك تشكل خطراً على الأمن، فاضطرت لأن تنام في المطار على المقاعد.
- و في اليوم الثاني عندما أقلعت بك الطائرة عائدة دون أن تصطحب أباك معك لم  
تلتمس الأدعية و الصلوات، عندما نظرت من النافذة الصغيرة رأيت البلد الذي بدأ  
يبتعد عنك ويصغر في عينيك رويداً رويداً.

## موسم الهجرة إلى الجنوب

وقفنا في صفّ طويل، يحمل كلّ واحد منّا حقييته بيد و جواز سفره باليد الأخرى، و الصفّ يتقدّم ببطء شديد، و الرؤوس تمتد يميناً و يساراً تستطلع ما يجري في المقدّمة، رؤوس مثقلة بالأمال، حالمة بالذهب الوهاج... بجزر الماس و العقيق. جاء دوري، فاقتربت من موظف الأمن، وضعت جواز سفري أمامه على المنضدة، و يبدو أنني أسرع، أو تجاوزت الرّوتين، فنظر إليّ الموظف بشفتيه الغليظتين المحنقتين، و دفع الجواز بنزق، فسقط على الأرض.

خيّل إليّ أن جميع الموجودين في الصّالة ينظرون إليّ بسخرية، يصفعونني بنظراتهم، شعرت بالإهانة فدار رأسي بحمى الغضب، لكنني تماكنت زمام نفسي، و جهّدت في تصنّع الهدوء، انحنيت ألنقط الجواز، أعدته إلى الموظف و سألته:  
- لم ألقيت الجواز؟

جاء صوته حاداً مشوباً بنبرة متعالية:

- تعلم النّظام و لا تكثر كلاماً.

إنني لم أخالف النّظام، تلفتّ أستنجد بنظرات الواقفين حولي أستنصرهم على سلوك هذا الموظف الأرعن، كان الجميع ذاهلين عني، لا يعيرونني التفاتاً، فكلّ منهم شأن يغنيه. اتّجهت إلى إحدى بوابات الخروج، ففتح أمامي بابها الزجاجي تلقائياً، عبرت البوابة فاستقيتني لفحة هواء ملتهبة، و أحسست برطوبة خانقة، و كأنّ الجوّ مفرّغ من الهواء فلم أستطع التنفّس بحريّة، أجهدت نفسي على استنشاق كمية من الهواء، و عدت كالمذعور إلى الصّالة لكنّ الباب الزجاجي أغلق أمامي، لأنّ البوابة لا تسمح بالعبور إلا من اتجاه واحد.

وقفت و كأنّما ألقيت في الجحيم، ألّهت، تكاد رثناي تتوقفان عن العمل... شواظ لاهب تصبّه السّماء على الأرض فتشوي الرؤوس و الوجوه... تشوي كلّ شيء، و أمامي هذه المخلوقات العجيبة، تتحرّك خرساء صمّاء تحمل الحقائق الضّخمة و تنقلها بسرعة دون تذبّور و قد كشفت عن أجزاء كبيرة من جسمها الأصفر اللامع. مخلوقات تعمل في هذا الأتون كزيانية جهنم.

تهافت عليّ سائقو سيّارات الأجرة يعرضون عليّ خدماتهم، حمل أشطّهم حقيبتني و وضعها في سيّارته، فاضطّرت إلى الرّكوب معه، كان في الحقيقة رسول النّجاة، دخلت سيّارته فكواني مقعدها الجلدي، تقلّقت في مكاني إلى أن امتصّ جسمي حرارة المقعد، و تآلف معه، و عندما انطلقت بنا السيّارة انساب هواء المكيف و جفّف عرقي المتصبّب فشعرت ببرودة لذيذة، أنعشت حواسي، و تمتّيت أن يطول الطّريق، و كان طويلاً حقّاً، سألني السائق عن وجهتي، أجبتة:

- شارع السّلطان جانب وكالة ناشيونال.

هزّ رأسه و هو يدندن بألحان أغنية لم أفهم منها شيئاً.

دخلنا المدينة، شوارعها عريضة و نظيفة، و الأبنية على الجانبين حديثة زاهية في السّماء، يكاد لا يدركها النّظر، مبنية بأناقة و ذوق حضاري، إنّها مدينة جميلة لكنّها مهجورة، لم أجد أحداً يسير على الأرصفة في هذا القيط اللاهب سوى بعض الهنود المستخدمين.

ترى هل يسكن ابن عمّي في مثل هذه الأبنية...؟ يا الله، من حارة المسحرين إلى شارع السّلطان، ما هذه الطّفرة يا بن عمّي...؟ أكان يخطر ببال أحدنا أن يسير في مثل هذه الشّوارع؟ لم تكن أحلام ابن عمّي تمتدّ إلى أكثر من شراء حمارة بيضاء مثل حمارة الشيخ صالح لنركبها دون أن نطارده من أحد، كنا كالإرهابيين نخطف حمارة الشيخ صالح منذ الصّباح، فنطوف بالأرقة و البساتين المتاخمة لحينا نلهو بها و نعبث، و لا نعيدها إلاّ قبيل الغروب. ثمّ كبر الحلم و توهّج، تحوّل حلم ابن عمّي من امتلاك حمارة كحمارة الشيخ صالح إلى امتلاك قلب ابنته سعاد، لم يكن يُعجب ابن عمّي من سعاد على الرغم من دمامتها، و الرّمذ المزمن في عينيها، سوى نهديها الكبيرين المتأرجحين، تهزّهما بفنّ إبليسي مثير مع مشيتها السّريعة فتشعل نار اللوعة في قلب ابن عمي، فيمضي السّاعات الطّوال في زاوية الرّقاق منتظراً خروج سعاد حتّى يحظى بنظرة خاطفة منها، و خلال ساعات الانتظار كان يحدثني عن حبّه الجارف لها و كيف يحلم بالسّاعات الدّافئة بين نهديها المتوتّيين، و الآن كبر الحلم يا ابن عمّي، كبر كثيراً، و تفجّرت ينابيع الدّهب، فما هي أخبارك؟ و ما هي أحلامك؟

توقفت السيارة فجأة، فقد لجم السائق اندفاعها الانسيابي اللذيذ بضغطة خفيفة من قدمه، و قال:

- هذه وكالة ناشيونال.دفعتم أجره لم أكن أتوقعها دون معارضة.  
جمحت السيارة مبتعدة لتلقي بي ثانية في الجحيم، ها هي وكالة ناشيونال، لكن أين  
بناية الشواخ؟! من أسأل؟ الشوارع مقفرة من البشر، و أبنية عالية عالية لا أحد يطلّ  
من شرفاتها، كأنها مدينة أسطورية مسحورة، أو مقبرة ملكية موحشة.  
حملت حقيبتني بيدي اليمنى، و ظللت بالأخرى رأسي، و هرعت إلى أول مبنى  
صادفني، عبرت بابها فواجهني بهو واسع صفحت أرضه و جدرانها بالرخام الأخضر  
الزاهي، و في صدره باب للمصعد، صحت:

- من هنا؟!!

فأعدت الجدران صدى صوتي، كررت النداء مرّات، فإذا باب صغير في الزاوية  
اليسرى يُفتح و يخرج منه رجل أسمر البشرة ذو شعر أسود لمّاع، و عيناه  
المتكسّرتان تغالبان النور المتدفّق من الباب الخارجي، قال باللغة الإنكليزية و هو  
يتنأب:

- من أنت؟ ماذا تريد؟

قدّرت أن يكون باكستانياً يعمل حارساً للمبنى، أجبته بالإنكليزية الركيلة و أنا أقترب  
منه:

- أهذا مبنى الشواخ؟

رد متأقفاً:

- أي شواخ؟ يوجد ثلاثون مبنى للشواخ هنا!

- و هل يوجد ساكن في هذا المبنى اسمه عبد القادر حنين؟!!

أجاب بنزق:

- لا...

و حاول أن ينهي الحديث و يغلق الباب، لكنني بادرت به سؤال آخر:

- كيف لي أن اعرف منزله؟

أجاب بسرعة:

- لا أدري.

و أغلق الباب الخشبي المزخرف، انغرست نظراتي في الباب برهة، ثم انسحبت و قد انقبض صدري و غام قلبي.

انتصف النهار، و اختفى الظل، و اشتعل كل شيء، السماء صفيحة نحاسية متوهجة تحتضن الأرض و تسلط عليها أسنة جهنم، و الأرض تتنفس لهباً أبيض، عدت أحمي رأسي براحتي، لكن العرق المالح الذي ينبع من رأسي اخترق حواجز العينين و انسرب إلى باطن الجفنين يكويهما، عصرت عيني لطرده العرق، فعاد النبع يملؤهما من جديد. شعرت بالعطش لكن أين الماء؟ جف لساني حتى أصبح خشبة يابسة، تلفتت أبحث عن حانوت أو إنسان أو شجرة، فلم أر إلا سيّارات طويلة فارهة تمرّ مسرعة، و أنا وحيد على الرصيف العريض لا أخذ يحس بي أو يلتفت إليّ، هل أموت هنا صبراً؟ لا، فأنا داخل مدينة عصرية... أنا بين ناظحات السحاب و أموت صبراً! لمعت فكرة في رأسي، ألا يوجد دائرة حكومية، مدرسة، مؤسسة...؟ نعم، و شرعت أهدق بعينيّ المحترقتين في الأبعاد المتراقصة وراء سراب الطريق الإسفلتي، فتنشعبت أشعة الشمس و غدت سوداء تخترق عينيّ المصرورتين، لم أعر على شيء، شعرت بدوار في رأسي، خشيت أن أسقط فاقد الوعي، فربّما أبقى أسبوعاً دون أن ينتبه إليّ أحد... لا، يجب أن أقاوم، أسرعت و كأني أتأكد من قوّتي، و قدرتي على المثابرة و التّحمل، فضجّ الدّم في عروقي، و تلاحقت أنفاسي جافة ساخنة، توقفت و كأني أصبت بالعشا، اختلجت المرئيات أمامي، و سقطت فوق حقيبتني منهكاً، جلست دقائق، أعيد النّشاط إلى أعضائي المضطربة و الاتزان إلى تفكيرني المشتّت، انحنيت برهة أستجمع قواي لجولة ثانية، رفعت رأسي، يا الله ماذا أرى؟؟! هل هذه معجزة؟ لا، لا... لم تكن هناك منذ دقائق... مدرسة... مدرسة زينب الابتدائية للبنات على خطوات منّي و لم أرها! ما أكرمك يا رب، و انطلقت أعدو نحو المدرسة أضحك كالأطفال من فرط سعادتي، فها هي واحة ظليلة حانية وسط الهجير، وصلت باب المدرسة، فإذا رجل ضخم أسود اللون، يجلس عبر بوابة

المدرسة متقوّس الظّهر، يعلو غطيّطه إثر نوم عميق، هتفت بصوت خفيض كيلا أزعجه:

- يا عم... يا عم...

و مرّت برهة:

- يا عم...

فتح الرّجل عينيه و كمن مسّه تيّار صاعق، انتفض واقفاً و حدّق بعينين حمرابين ثمّ رفع حاجبيه بغضب، فاستطالت عيناه إلى الأعلى كجنيّ، و هجم عليّ، و صوته يهدر، و البصاق يرغو على شفّتيه.

- ابتعد أيّها الماجن... ابتعد أيّها الفاجر الكافر... يا عدوّ الله، أتعتدي على الحريم؟!!

تراجعت مذعوراً مذهولاً من وقع المفاجأة، حاولت أن أهدئ الموقف، و أشرح له غرضي، لكنّه لم يسمع و لم ير، و تابع سيل شتائمه ملوّحاً بيدين كمجدافين، لم أجد بداً من الهرب أمام هذا الثّور الهائج، و انطلقت أعدو.

يا الله ما هذا اليوم الذي خبّأته لي؟ هل قامت السّاعة و أنا في يوم الحساب دون أن أدري؟ هل أنا في إحدى دركات جهنّم الأقي عذاب السّعير؟ أستغيث فأغاث بالعذاب...! كان عليّ أن أجري دون توقّف، و على غير هدى، مدفوعاً بغريزة حبّ الحياة، تابعت الطراد بقوة خفية، تلتفت ورائي، لم أر أحداً، لماذا لا أدخل أي مبنى يواجهني؟ اجتزت باب أحد المباني الضّخمة، انهار جسمي فوق أولى درجات السلم، بجانب المصعد، و أنا أنتفض كديك مذبوح، و أنفاسي تتسابق، لكنّ الخوف من ذلك المارد ما يزال مسيطراً على دماغي و أعصابي، و عيناوي معلقتان بالباب ترقبانه.

هدأت قليلاً، و شعرت ببعض الرّاحة و البرودة، لا بدّ من الانتظار هنا في هذا الملجأ حتى تنطفئ الشّمس، صوت حذاء صيفي ينسحب على الأرض كمسجح، و خيال يظلل مدخل المبني، انتصبت على قدمي أستعد لمواجهة القادم، ظهر رجل صغير الحجم بثوب أبيض طويل يلامس الأرض، و على رأسه شملة حمراء يحبسها عقال أسود غليظ، تقدّم إلى المصعد، و غمز زره و هو يرشّقي بنظرة مستهجنة،



همت بأن أطلب منه مساعدة... كوباً من الماء... سؤالاً عن ضالّتي... لكنّ باب المصعد فتح و غاب داخله.

عدت إلى مكاني كسير النّفس، أمّنيها بساعة الفرج، و أفنّش عن مسوّغات لضياعي و إذلالي. لا شكّ أن عمّي هو السّبب، و إلّا لماذا لم يذكر لي في أي مبنى للشواخ يقطن ابنه؟ قال لي فقط شارع السّلطان جانب وكالة ناشيونال مبنى الشواخ.

قال لي: لن تضيع، فالوكالة أشهر من أهرامات مصر، أكان يريد تضليلي؟! أم أن ابنه أرسل إليه هذا العنوان المقتضب لغاية ما؟ لا... فأنا أعرف ابن عمّي، إنني الأثير لديه من بين كل الناس، سوف يحزن و يغضب عندما يسمع بما يجري لي، سوف يثار لي من هذا العلج المأفون، مثلما ثار لي يوم اختطف أحد الصّبية الكبار كراتي الرّجائيّة، و ضربني حين تعلّقت به لإرجاعها، فانقضّ ابن عمّي عليه و أوسع ضرباً، و أعاد كراتي المغتصبة، فرفعت رأسي مزهوّاً بابن عمّي. ما أحلاها من أيّام! الشّمّل ملتئم، و الدم أصيل فوّار في العروق.

لذّ لي أن أستعيد الماضي حيّاً على مسرح ذاكرتي أمتّع النّفس و الرّوح بساعاته الحلوة... ما أجمل الماضي السّعيد في لحظات الشّدّة...

تتابعت الصور وردية ندية، فنسيت ظمئي و تعبتي، و استسلمت لأجنحة الكرى ترفعني إلى عوالم شقّافة مسحورة، أرى دارنا الكبيرة التي التهم الشارع الجديد قسماً كبيراً منها، أراها يوم كانت تضم أعمامي الستة و أبي مع زوجاتهم و أولادهم و على رأسهم جدي يأمر و ينهى و الجميع على رأي واحد، و سكّان الحيّ المجاورون يهابون هذا البيت العتيد، فالاعتداء على أحد أفراده يعني الاعتداء على كلّ كبير و صغير فيه، ينفر الجميع للأخذ بالثأر، ثم يأتي دور جدّي صاحب الكلمة الفصل في هذا الحيّ ليصلح بين المتخاصمين، بل و ليتملّ الديات و المغارم عن جميع سكّان الحيّ.

تتابعت لمحات الحلم الحلوة تهدد مشاعري، و تخدّر أعصابي، إلى أن قرع أذني صوت حاد يرن:

- ماذا تفعل هنا؟

قطع الصّوت عليّ حلمي اللذيذ، فتحت عيني لأرى هذا المتطّقل، لا... لم أصدق عيني، أتراني ما زلت في الحلم أم أنّها الحقيقة؟ ابن عمّي عبد القادر بلحمه و دمه أمامي... ابن عمّي و هو يلبس الثّوب الأبيض الطّويل و الشّملة الحمراء على رأسه يحبسها عقال أسود، صحت و كلماتي تقفز و تزقزق فرحاً:

- عبد القادر؟!... أهذا أنت؟

و انتصبت واقفاً و الحقيبة في يدي استعداداً للذهاب معه، أجايني دون أن تتغير قسّمات وجهه:

- أهلاً صلاح.

قلت بلهفة:

- كيف حالك يا رجل؟ و هممت بأن أهجم عليه لأعانقه، لكنّي لم أر منه احتفاءً أو استعداداً لمعانقتي، أجايني:

- ماذا تفعل هنا؟!!

قلت:

- أوتسألني هذا السّؤال؟ إنني أبحث عن بيتك منذ الصّباح.

قال:

- إنني أسكن هنا في الطّابق العاشر، و أنا الآن مشغول جدّاً، و عليّ أن أسافر غداً إلى لندن لأمر هامّة، إن احتجت إليّ فيامكانك الاتصال بي على موقعي على الانترنت.

وقفت مصعوقاً، فاغر الفم، سقطت الحقيبة من يدي و تدرج قلبي وراءها.